



كتب فومية

الثورة العراقية

في الميزان

بقلم
حسن صافق

0276171



Bibliotheca Alexandrina

اهداءات ١٩٩٩
الأستاذ/ كامل إبراهيم
أستاذ وفنان الخط العربي

كتب قومية

الثورة العراقية في الميزان

بقلم
حسن حافظ

الأهداء

إلى أبطال ثبتوا في المعركة .. فكانوا أبطالها الحقيقيين ..
إلى أبطال حفظوا الشرف العسكري ، فرفعوا من قدر الكفاح
المصري ..

إلى محمد عبيد : الذي فك حصار الزعماء المصريين من براثن الشراكسة
والأتراك في قصر النيل ، والذي صمد لدفاع الإنجليز حتى لقي ربه ..
وإلى راشد حسني : « أبي شلب نضة » الذي ثبت للإنجليز في معركة
القصاصين .. والذي زحزحهم عن مواقعهم حتى كاد ينتصر لولا خروجه
من المعركة جرحاً ..

وإلى حسن رضوان : الذي أصلى الإنجليز ناراً حامية حتى رد له قائد
الجيش الإنجليزية سيفه وهو محمول على نقالة احتراماً له وتقديراً لشجاعته ..
وأخيراً ..

إلى الكثيرين من الأبطال المجهولين من أبناء مصر .. الذين جمعوا
القروش والحبوب ليساندوا جيشهم ضد الغاصب المحتل ..
إلى هؤلاء .. وهؤلاء جميعاً ..
أهدي إليهم هذا الكتاب ..

مقدمة

تصحيح تاريخ مصر الحديث

يقول الفيلسوف ابن خلدون :

« إن المؤرخين والمفسرين كثيرا ما وقع لهم من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا دون أن يعرضوها على أصولها أو يقيسوها بأشبابها أو يحكموا النظر والبصيرة في الأخبار . . . فضلوا عن الحق ، وتاهوا في يدياء الوهم والغلط » .

وهذا الذى كتبه ابن خلدون يصدق إلى حد كبير على كثير مما دونه للمؤرخون والكتاب عن تاريخ الثورة العرابية .

والحق أننى لم أعتز حتى الآن على ذلك المؤرخ الذى كتب عن الثورة العرابية دون أن يكون متحاملا . . . أو محايا . . .

وأماى ثلاثة كتب لثلاثة من مؤرخينا :

كتاب تاريخ مصر السياسى للأستاذ محمد رفعت

وكتاب أحمد عرابى للأستاذ عبد الرحمن الراجى

وكتاب عرابى الزعيم المفترى عليه للأستاذ محمود الحفيف

وصف الأول الثورة العرابية بأنها فتنة عسكرية . . وفي مكان آخر بأنها « هوجة هوجاء ونقطة سوداء » . .

والثورة العرابية حركة وطنية ووثبة من وثبات التحرر . . . ومن عجب أن يصفها مؤرخ بهذا الوصف الذي يتجاهل الوقائع ويجافى أبسط قواعد المنطق الذي يرتب النتائج على المقدمات ، انظر إليه وقد سرد أسباب الفشل قبل عرض الوقائع أو التحدث عن الأسباب !

وكان الأستاذ محمد رفعت وزيراً للمعارف حتى عام ١٩٥٢ وظل كتابه هذا يدرس للجيل الناشئ حتى وقت قريب :

. . ثم يأتي الأستاذ عبد الرحمن الرافعي فيصف الثورة العرابية بالمهزلة مع أنها كانت مأساة !

ولا يذكر « الخيانة » في كتابه ذى المائتين والتسع عشرة صفحة بين الأسباب التي أدت إلى الإخفاق . .

ثم يحمل عرابيا ، وعرابيا وحده دون أحد سواء مسؤولية انقسام البلاد إلى معسكرين : معسكر الحديو ومعسكر الثوار . .

وكان الأستاذ عبد الرحمن الرافعي سكرتيراً للحزب الوطني . . والحزب الوطني كان يناصر عرابيا وثورته العدا .

وأخيراً يأتي محمود الحفيف ليحاول إنصاف عرابي فيخونه التوفيق . . كان الحفيف محامياً أكثر منه كاتب تاريخ ، جنحت به العاطفة فبعد عن الحقيقة ، انتحل من المعاذير والأسباب لعرابي أكثر مما تحتمل المعاذير

والأسباب . . ونسى أن التاريخ يحكم بالتأني . . وأنه قاس لا يغير الأخطاء .
ولو صدرت من المخلصين .

فإلى متى نتصرف في التاريخ . . ونلونه بما يروق لنا من ألوان ونطويعه
للأهواء والنزوات ؟

ليس في تاريخنا — الحافل أحيانا بالمتناقضات — إلا الموقف المشرف
والقصْد النبل . . لقد اختلطت بالتاريخ على أرضنا عوامل الحق بعوامل
الباطل وعوامل الحق بعوامل الغدر ، بذرات الغبار . .

وكان لزاما علينا ونحن نروى تاريخنا أن نفصل بين العوامل ، لنعفي
وقائع التاريخ من كل ماشابهها ، ونحررها من كل ماعلق بها من أدران .
وما نكاد تنفض عنها ذرات الغبار لنراها عارية حتى تبدو جليلة أمام
العقل المتفطن والنفس الشفافة . . وعندئذ نستطيع أن نتيقن العوامل
أصليها ودخيلها وأن نرى الأشخاص والدوافع والأسباب والتأنيج كما ينبغي .
أن يراها المؤرخ الذي ينصف نفسه عندما ينصف التاريخ . .

قبل الثورة

الحملة الإنجليزية على مصر

تعتبر الحملة الإنجليزية على مصر حلقة من سلسلة الحروب والنازعات التي دارت بين الشرق والغرب منذ أقدم العصور . . وقد تعللت بدفع الخطر ، وأحيانا بالبحث عن الثروة وصراع البقاء .. ولكنها في حواشها الأسيقة التي انتهت باحتلال مصر سنة ١٨٨٢ قد تمثلت في دورين كبيرين أحدهما لاحق بالآخر ومكمل له ومتوقف عليه .

« هذان الدوران هما دور الحروب الصليبية .. ودور المسألة الشرقية »
كان الصراع في الحروب الصليبية موجهاً إلى البلدان العربية باعتبارها في ذلك الوقت أقوى الدول الإسلامية وقلب البلاد العربية . . ولكنها هدأت عندما طرقت جيوش العثمانيين أبواب بودابست وفيينا ثم تحولت حملاتهم إلى الشرق وغزوا مصر في أوائل القرن السادس عشر .

وشغلت في أثناء ذلك دول أوروبا باكتشاف أمريكا وحروب فرنسا ودعوة الإصلاح الديني ، ثم عادت في أواخر القرن السابع عشر واتهمت إلى النزاع الناشب بين روسيا الناشئة والدولة العثمانية الشائخة ، فكان هذا التنبيه فاعمة مسألة جديدة عرفت باسم : المسألة الشرقية .

وكانت سياسة الدول حيال المسألة الشرقية درساً تطبيقياً لمذهب القائلين « بالسياسة الجغرافية » ، وخلاصته : أن مركز الأمة الجغرافي

يعلى عليها سياستها على اختلاف الحكومات والمعتقدات . . . ١٠٠
أملى هذه السياسة على إنجلترا موقعها البحرى واستيلاؤها على الهندان
تحتل جبل طارق ورأس الرجاء الصالح وعدن ومالطة ومصر ، وتعلت
فى احتلالها لكل واحدة منها بعة ، بينها وبين العلل الأخرى بعد ما بينها
جميعاً من مسافات ... ولكن « السياسة الجغرافية » هى العلة الوحيدة
التي تطوى جميع تلك العلل ، والغاية التي تسبق جميع الغايات .

التنافس الاستعمارى

بدأ القرن التاسع عشر وإنجلترا وفرنسا تتسابقان فى ميدان الاستعمار
حيث كانت إنجلترا فى ذلك الوقت أقوى دول البحر ، على حين كانت فرنسا
أقوى دول البر ، وكتلتها تتجه إلى البحر الأبيض المتوسط . وإنجلترا
شديدة الحرص على سلامة الطرق بين مستعمراتها الشاسعة وبين الجزر
البريطانية .

وعلقت بذهن فرنسا نصيحة نابليون : « إن مصر موصل تجارى هام
بين الشرق والغرب ، وإنها إذا افتتحت فلن تقوم لإنجلترا قائمة فى بلاد
الهند ولا سيبا بعد شق قناة بين النيل والسويس » .

واشتد التسابق عند ما دخلت الدولة العثمانية فى دور الانحلال حتى
سمهاها الساسة الأوروبيون « بالرجل المريض » .

ولعل المبارزة الدولية حول مصر فى العصر الحديث قد ظهرت للمرة
الأولى بين روسيا وإنجلترا ، عندما أعلن على بك الكبير استقلال هذه
البلاد إلا أن خصمه « محمد أبو الذهب » استعان بالإنجليز ، وكان حليفاً

لهم يسر لهم وصول السفن الإنجليزية إلى السويس . . . واتفق هذا مع ثورة
الحواطر في العالم الإسلامي على روميا المسيحية في ذلك الوقت ، فغلب على
بك الكبير على أمره وعادت مصر إلى ما كانت عليه نهياً للممالك .

وأخذت إنجلترا وفرنسا تترقبان ، وكل منهما تصيد أقوى الممالك
بأساً إلى جانبها حتى آلت الولاية إلى محمد علي . . . ويبدو أن فرنسا كانت
أعلم بمخاطق الأحوال في مصر من منافستها هذه المرة ، فأيدت فرنسا ترشيح
محمد علي لدى الباب العالي بمسعى مسيو « ماثيودلسبس » صديق محمد علي
ووالد فرديناند دلسبس صاحب مشروع القناة

حملة فرير :

غير أن الانجليز عارضوا في ولاية محمد علي ووجهوا إلى مصر حملة
كبيرة مكونة من ٧,٠٠٠ جندي بقيادة فرير عام ١٨٠٧ كان غرضها
بمختلف عن غرض الحملة التي أرسلت عام ١٨٠١ لطرد نابليون ورد مصر
إلى الأتراك . . . ولكنها في هذه المرة كانت تقصد معاونة الممالك والقضاء
على سلطة محمد علي وتفوذ الفرنسيين . . . حسبها الانجليز نزهة حرية ،
غير أنهم ما كادوا يحتلون رشيد حتى أطبق عليهم محافظ المدينة على « بك »
السلانكلي من كل جانب وأباد عدداً كبيراً من القوات الغازية ، واضطر
الباقى إلى الجلاء مدحورين

وظلت إنجلترا تتحين الفرص لتحقيق مطامعها في مصر ، حتى أثارت
الدول ضد محمد علي خشية اشتعال حرب كبيرة إذا انهارت دولة آل عثمان
وحقياً أبرمت معاهدة سنة ١٨٤٠ التي كانت نكبة على مصر حيث تدرعت
بها بريطانيا واتخذت منها « غلا » يعيد تصرف للصريين . ١

قناة السويس

وفي نهاية حكم محمد علي بدأ التفكير الفعلي في إنشاء طريق يربط الهند بالغرب عبر مصر ، فقام صراع بين فكرتين أو بعبارة أدق بين دولتين هما إنجلترا وفرنسا .

كانت الأولى تبغى احتكار الخط الحديدي بين الإسكندرية والقاهرة في حين كانت فرنسا تجبذ مشروع القناة الذي كان لابد أن يصبح مسألة دولية ولذلك قال « مترنيخ » السياسي الداهية عندما أتى ذكر القناة : « إن شركة خاصة لن يسمح لها بتنفيذ المشروع من غير أن تستعين بالحكومات » .

فتلكأ المشروع وتعثّر بسبب ما ساور إنجلترا من مخاوف نتيجة أن هذا الطريق — باعتباره طريقاً بحرياً عاماً — سوف يفتح آفاقاً جديدة لجميع الدول ، علاوة على أن إنجلترا كانت تخشى أن يكون من وراء هذا الجفرنية من جانب فرنسا للاستيلاء على مصر . . . إلا أن محاربة إنجلترا لهذا المشروع لم تدم طويلاً عندما نشبت فتنة الهند ، واستسكرت جميع الدول موقفها الأناني حتى اضطرت في النهاية إلى تأييده ، بل وأكثر من ذلك اعترفت — عندما انبرى غلادستون يدافع عن المشروع — أنها ستستفيد من القناة أكثر من أية دولة أخرى .

أما محمد علي فقد أبدى رأيه بصراحة في هذا المشروع إذ وصفه بقوله :

« أنا لأريد أن أجعل وادى النيل ممراً دولياً .. كما أنى لا أرغب في إيجاد بومفور آخر » .

ومات محمد على سنة ١٨٤٩ من غير أن يتقيد بأحد المشروعين . .
وتولى عباس الأول وكان لا يميل إلى الحضارة الأوربية الفرنسية .
وسرعان ما التفت حوله القناصل الانجليز ، وسبقوا منافسيهم ووقعوا عقد إنشاء خط حديدى يصل الإسكندرية بالقاهرة . إلا أن حلم القناة قدر له أن يتحقق على يدى الوالى سعيد باشا ثم قدر للمشروع أن يظهر بعد ذلك على يدى إسماعيل .

وافتححت القناة رسمياً فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ فى موكب من ٦٧ سفينة يتقدمه اليخت الامبراطورى « النسر » وعليه الامبراطورة « يوجينى » .
وبهذا أصبحت قناة السويس جزءاً من جغرافية العالم الطبيعية والسياسية ، وأصبحت بيت القصيد فى التيارات السياسية فى الشرق الأوسط ، وظهر اقتراح خطير مؤداه أن تتقدم الحكومة البريطانية لشراء الشركة وبذلك تسيطر على القناة ، فاقترح دلبس درءاً لهذا الخطر .
بيع القناة لدول أوروبا البحرية مجتمعة حتى يضمن دولية القناة .

وأخيراً أُنْهذ الباب العالى الموقف حين أعلن : « إنه لا يمكن إقرار مبدأ بيع أو تكوين إدارة دولية فى أرض هى ملك له ا » .

مصر في قبضة الديون

بلغ ما تحملته مصر وحدها من إنشاء نفقات القناة ما يزيد على النصف، أى ما لا يقل عن ١٦ مليون جنيه ، فكانت القناة من الوجهتين المالية والسياسية وبالا على مصر . . ولا ريب أن شق القناة دفع إسماعيل إلى بعض وجوه الإصلاح ومجاراة المدينة الغربية . . وعجزت فرنسا عن تأييده مادياً أو أدنياً حيث خرجت منهوكة القوى بعد الحرب السبعينية ، فتحينت انجلترا الفرصة وأظهرت استعدادها لإقراضه . . فتحول الخديو إلى البيوت المالية الانجليزية وتحولت انجلترا من الدس ضده في الآستانة إلى التوسط له عند السلطان في تحقيق مطلبه في وراثة العرش التي وقفت فيها موقف المقاومة على طول عهد عباس الأول ، فصدر فرمان العثماني بذلك ، ثم ما لبثت أن طلبت توسيع حقوق الخديو على لسان سفيرها في الآستانة « هنرى أليوت » الذي ص : ح :

« بأن ما ناله الوالى من الحرية في الإدارة الداخلية لا قيمة له ما لم تكن له الحرية المطلقة في ارتياد الأسواق الأجنبية التي لا غنى عنها ، وفي إنجاز المشروعات الضرورية لتنمية الثروة المصرية » .

وكشف هذا التصريح عن نية انجلترا في التدخل في شئون مصر حدث ما كان متوقفاً وتفاقت أخطار الديون واستعصمت أزماتها حتى وصلت الحال إلى أسوأ درجة بسبب حرب الحبشة إلى أن اضطرت.

الحكومة إلى بيع حصتها في شركة القناة . . فسارعت إنجلترا أيضاً للحصول على هذه الصفقة وماهى إلا فترة قصيرة حتى طلب الحديو من إنجلترا إيفاد أحد الخبراء لإنقاذ الحالة المالية فأرسلت الحكومة لجنة برئاسة المستر « كيف » عضو البرلمان لتقدم تقريراً وإيضاً عن الحالة الاقتصادية في مصر .

وقد جاء في هذا التقرير الذى استغرق وضعه شهرين :
« تشكو مصر من الجهل والإهمال والتبذير . . وتشكو كذلك من كثرة النفقات التى سببها إنجاز مشروعات إصلاحية ولكنها أنجزت بسرعة وبدون دراسة » .

واقترح للعلاج إنشاء إدارة للمراقبة المالية يرأسها موظف إنجليزى وهكذا خططت إنجلترا بعد شراء أسهم القناة أول خطوة علنية للتدخل في الشؤون المصرية .

الرقابة الأجنبية :

وكما هى العادة في كل المشروعات الاستعمارية اتخذت الأمور للمالية أداة للاعتداء .

انتقلت الرقابة المالية إلى رقابة عامة على الحكومة المصرية عندما قبل إسماعيل حضور « لجنة التحقيق العامة » التى منحت سلطات واسعة في الإشراف على الدواوين حتى وصل الأمر إلى ارتهان موارد الدولة وأراضيها ، بل تفننت الرقابة في ابتداع الوسائل لتحصيل الضرائب ، وفرضت ضريبة السخرة يؤديها من يريد إعفاء من العمل بغير أجره



نوبار باتنا
أحسن وسيلة للحصول على المال : لحالة الضباط
للى الاستبداد

في حفر الترع وتدعيم الجسور . وسيق آلاف المصريين كقطعان الماشية للعمل تحت لمب السياط .

ولكن أخيراً وجدت الرقابة أن أفضل وسيلة للحصول على المال إحالة عدد كبير من ضباط الجيش يربو على الألف إلى الاستبداد . . فتجهمر الضباط واعتدوا على نوبار وولسن عند حضورها لوزارة المالية لولا حضور الحديو الذي أنهى الأمر بسلام فأثنى القناصل عليه لحسن تصرفه . . فاتهزها فرصة ليخبرهم بأنه لن يكون مسئولاً ما لم تكن لديه السلطة الكافية ، فاستقال نوبار بحجة عدم ضمان الأمن والنظام . وتعد هذه المظاهرة أول نذير بالثورة العراقية .

النهضة الفكرية :

بدأت الحياة تدب في أطراف مصر في نهاية حكم إسماعيل . . ونهضت طبقة تطالب بالإصلاح .

كانت الأذهان متفتحة . . ولكن من ينطق ؟

والأعين ناظرة . . ولكن ماذا ترى ؟

والأفكار مهيأة . . ولكن كيف تعمل ؟

لقد شكت الأفلام شدة الظمأ ، وأوشكت الحابر أن يجف . .

وأصبح منهاج الحاكم وعدا يخلف ، ووجد الأجنبي المول الذي يحطم به نهضة الوطن في اجتذاب فريق من أبنائه والعرباء عليه ، أخذ يحقق رغبات الاستعمار وشهوات النفس من الاستحواذ على الضياع وملب الأموال حتي أصبحت النفوس لا تستقر على حال .

أخذ العقلاء المصريون يفكرون في التخلص من هذه الحال خصوصاً أن التدخل الأجنبي اشتدت وطأته ، وأثقلت الديون أرض الفلاح وغلته ومواشيه فكان المنفذ — كما يقول اللورد ملتر — هو الطريق للمرابي . . . ومن لم يشك من المرابي يشك من الإدارة ١

وتشاء الظروف أن يهبط وادى النيل في ذلك الوقت الشيخ الثائر « ثائر الشرق الأول » الشيخ جمال الدين الأفغانى الذى قيضه الله للشرق يداً هزته بقوة وعنف فأيقظته من غفوته ، وأخذت يده من قاع البئر ، فقد كانت الثورة والثورة الدائمة أسلوبه وطابعه ، فليس غريباً إذن على من وقف في هذا العهد الذى خيم عليه الظلام والذى خيل للناس أنه ظلام لن يعقبه نهار . . . ليس غريباً إذن على من وقف في هذا العهد منذ ثمانين عاماً ليذكر الشعب بحقه في قوة وجراءة وعنف أن يطلق عليه الثائر الأول . والشعب في هذا الوقت لم يكن ينظر إلى الحاكم إلا بأنه السيد المطاع ١ ليس غريباً إذن أن يكون الثائر الأول من يخطب في عهد إسماعيل في صرخة عالية مدوية :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتنتب منها ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال . . . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الدين يأكلون ثمرة أتعابك » ؟ .

بهذه الجراءة التى لم يكن للناس بها عهد كان جمال الدين يكافح الاستبداد . . . وبهذه الجراءة أيضاً كان جمال الدين ينزع قذاع الذل والهوان عن الضعفاء والمستضعفين . لقد كان يؤمن بفكرة تنبعث من ذلك القلب

الذى يتأجج بالثورة . والثورة لا تقف عند حد الإطاحة بالحكام الفاسدين بل تتعداها إلى قلب النظم الفاسدة ، تلك النظم التى قوامها ليس الحاكم الفاسد وحده بل الشعب الذليل أيضاً ، إذ لن يكون هناك أبداً إصلاح بتغيير الحاكم ما لم يكن مصحوباً بتغيير المحكوم ، فلولا العبيد ما كان الأسياد . . ولولا الذل ما كان الاستعباد !

وعلى هذا حمل جمال الدين سوطاً قوياً يقرع به الشعب المترنح تحت وطأة الطغاة المستبدين حتى أخذ عليه البعض عنقه وتطرفه إلا أنه كان يقوم بمهمة « قارع الطبول » فى بداية الحركة . . وهذه يجب أن يعلو صوتها حتى يخرق آذان الحاملين ! فلم يحجم عن أن يصارح قومه برأيه ويصرخ فيهم بأعلى صوته عند الصلاة :

« لقد تناوبتكم أيدي الفاسبين وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيف عظامكم بأداة عسفه ، وأتم كالصخرة لللقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة شاهدة بمنعة آبائكم وأجدادكم .

هبوا من غفلتكم ، وامحوا من سكرتكم . . وانفضوا عنكم غبار الغباوة والحمول وعيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء أو موتوا كراماً شهداء ! »

ثم ينعى على المصريين فى مكان آخر تفرقهم ويدعوهم إلى الاتحاد . ونبذ الاختلاف والتشريد فى كلمته الخالدة :

« إن أقتل أدواء الشرق داء انقسام أهليه ، وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف . وقد اتفقوا على ألا يتفقوا .. ولا تقوم على هذا لقوم قائمة » .

ولم تكن المجاملة التي أضفاها عليه الحديو إسماعيل من اكرامه واجراء مرتب ثابت عليه لتجعله يغض الطرف عما يراد بالبلاد ، بل انبثت الأحداث الملتية في صدره تشع النور والنار :

« إن الإسلام والنذل لا يجتمعان في قلب واحد » .

وشاءت عجلة الحوادث أن تخدم الثورة ، فقد أخذ إسماعيل يلتمس الأساليب للتخلص من السيطرة الأجنبية فعمد إلى إنشاء مجلس شورى النواب ليكون معبراً عن إرادة البلاد ، كما ألف الشيخ جمال الدين أول حزب سياسي في مصر أسماه : « الحزب الوطني الحر » كان من أعضائه محمد عبده والبارودي وعبد الله نديم والمولحي والشريعي . .

وتبلورت الأفكار حول شعار هذا الحزب الذي لم يسمع عنه من قبل في مصر ألا وهو « مصر للمصريين » .

وقد وقف هذا الحزب عقبة كأداء في سبيل تحقيق أغراض المستعمر ، وكانت التربة صالحة لنمو بذور الإصلاح ، فما أسرع أن نمت بذرة الحرية . وظهرت في البلاد حركة حرة كأعظم ما تكون الحركات الحرة انبثت منها نهضة صحفية ونهضة اجتماعية حمل لواءها الشيخ محمد عبده . وما لبثت

أن مجاوبت عناصر الأمة مع هذه النهضة الفكرية حتى الخديو أراد
الاستفادة من هذه الحركة لمحاربة التدخل الأجنبي الذي أبطل حقوق
الحاكم والمحكوم على السواء . . وسائر الخديو اسماعيل رغبة الشعب
لاسترداد مكانته وتقوذه وسلطانه . فأنار عليه الأجانب وعمزل من
الولاية ! . . .

الشَّوْرَة

توفيق



الخدوي توفيق
« ورت العرش والثورة »

ورث توفيق عن اسماعيل
العرش والثورة معاً ، فقد تجمعت
عوامل الثورة قبل عهده ثم
سُبت أيام حكمه .

كانت الثورة انفجاراً صبيه
ما كانت تعانيه البلاد من الحكم
المطلق ، والضائقة المالية ، وتدخل
الأجانب .

لقد ظل توفيق يذكر دائماً
أن الأجانب هم الذين عزلوا أباه ،
ولذلك غالى في استرضائهم ،
وذهب يلقي الحكم الدستوري

في البلاد ، ويحارب دعاة الإصلاح بالتشريد ، ففي الشيخ الثائر « جمال
الدين الأفغانى » .. وطبيعى أنه كان سيلقى مقاومة من الهيئات بسبب
هذا السخط فى كل مكان ..

ولكنه كان فى الجيش على طراز آخر ؛ إذ كان الجيش هو الهيئة الوحيدة

التي لم يسيطر عليها النفوذ الأجنبي حتى ذلك الحين .. كان معظم أفراد هذا الجيش من الضباط والجنود المصريين الوطنيين الذين يجرى في عروقهم الدم المصري الأصيل ، والذين كانت تتحرق نفوسهم شوقاً للثورة على كل دخيل ، أجنبياً أوروبياً كان أو شركسياً ، يريدون إنهاء سيطرته حتى يعم خير البلاد بنها ، بعد أن حرموا خيراتها زمناً طويلاً ...

وشعر هؤلاء الضباط والجنود بمثل ما أحست به طبقات هذا البلد من الحرمان ، وأحسوا الحقد الذي يحمله المستعمر لأبناء هذا الوطن .. فالرواتب ضئيلة والسلطة بالنسبة للضباط المصريين في جيشهم وممارسة حقوقهم تسكاد تكون معدومة .. والأجنبي يصول ويجول .. وحاكم البلد يقذف بالوطن لقمة سائنة في أفواه الطامعين ، وكل هذا مهد للطالبة بالحق .. والسخط على الحاكم ! فسارت البلاد نحو الطريق الطبيعي للثورة : السخط فالتظاهر فالمصيان فالثورة فالجرب !

مظاهرة قصر النيل

فلقد كان المتصرف في الجيش في ذاك الوقت ضابطاً شركسياً يتولى منصب وزير الحرية هو الفريق عثمان رفقي (باشا) . وكانت تصرفاته كافية وحدها لإشعال الثورة ، فلقد أذاق المصريين من كيد وظلمه بقدر ما أفاض على التراكسة من عطفه فذهب ينعم بالترقيات ، ويولى الضباط التراكسة والأرناؤوط والآتراك مناصب الجيش الممتازة في حين لا ينال الضباط المصريون الذين كان يسميهم فلاحين سوى العزل والإبعاد !

وجزى الله الشدائد كل خير فلقد ألف الظلم بين قلوب المصريين ، وجمع
شتاتهم تحت راية ضابط توافرت لديه صفات الزعامة لما كان يتمتع به من
شخصية قوية ، أجمعت النفوس على محبته والانضواء تحت لوائه حيث
كان أشدهم سخطاً على الظلم والطغيان .



أحمد هراي
« أجمع الضباط على زمامته »

وكان هذا الضابط هو
الأميرالاي أحمد عرابي قائد
آلاي العباسية .

ولم تطق نفوس الضباط
صبراً عندما هم الوزير التركي
بغزل القائمقام أحمد عبد الغفار
قائد السوارى يعين قائد أشركسياً
في مكانه ، وتنزيل الأميرالاي
عبد العال حلى قائد آلاي طرة
ليكون معاوناً بديوان الجهادية

وإحلال ضابط آخر يجرى في عروقه الدم التركي . . وعلق عرابي على
هذه القرارات لزملائه بقوله :

« إن هذه لقمة صلبة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها ! »

وحين سمع الضباط بهذه الأوامر علاوة على إحصاء باب الترقى في
وجوههم تجمعوا في منزل عرابي . . وفي موجة حماسهم أخرجوا

المصاحف واستلوا السيوف .. وأقسموا عليها أن يعارضوا هذه القرارات وأنهم يقدونه ويفدون الوطن بأرواحهم .

قدم عرابي وصاحبه الأميرالاي على فهمي قائد الحرس الخديوي والأميرالاي عبد العال حلمي قائد طرة مذكرة لرئيس الوزراء رياض (باشا) يطلبون فيها عزل عثمان رفقي وزير الحرية وإسناد منصبه إلى وزير وطني .. فوعدهم رياض باشا بالنظر مظاهرها بعدم السخط أو الغضب ولما مضى أسبوع ولم يتم شيء أعاد ثلاثهم عرض المذكرة على رياض في داره فتوعدهم مهدداً .. ولكنهم لم يتراجعوا لإيمانهم بأن مطلبهم حق وعدل .



الواء عبد العال حلمي

« من قائد لواء طره إلى معاون الجهادية »

لم تسلك الحكومة الطريق السليم ، فلم تنظر الشكوى وتحقق فيها بالعدل ، فتتصر المظلوم وترد لأبناء مصر كرامتهم .. بل إنها لم تحافظ على هيبتها وكرامتها كحكومة ذات قوة وسلطان ، فعمدت إلى انتهاج أسلوب ملتو لا يحمل رجال مسئولين أن يسلكوه ، فقد قرر مجلس الوزراء محاكمة الضباط الذين قدموا المذكرة على

أن يعهد إلى وزير الحرية عثمان رفقي بتنفيذ هذا القرار الذي اتخذ بصفة سرية .

لم يتبع عثمان رفقي الأصول العسكرية نحو إعلان الضباط الثلاثة بقرار المحاكمة كما ينص القانون ، بل تظاهر بدعوتهم إلى ديوان الوزارة كي يبحثوا معه في ترتيب إجراءات الاحتفال بزفاف شقيقة الحديو . . ولما كانت العادة عدم استدعاء قواد الآلايات للاجتماع بالوزير في مثل هذه المناسبات فقد قابلوا الأمر بالريبة إلا أنهم اتفقوا مع باقي الضباط على أنه إذا ما تأخر بقاؤهم في الديوان فستكون هناك مؤامرة قد دبرت ضدهم ، ويستلزم ذلك العمل على خلاصهم .

وما كاد ثلاثتهم يدخلون ديوان الوزارة حتى وجدوا أنفسهم بين صفوف مسلحة من ضباط وجند الشرا كسة تقبض عليهم وتزع سيوفهم ، وتجردهم من علامات رتبهم في مهانة وذلة ، وتسمعهم سيلا من عبارات القذف والسب .

وفي الحال التأم المجلس العسكري ، بحضور كبار الضباط ووزير الحرية وبدىء في تلاوة الادعاءات الخاصة بمحاكمتهم وكانت الساعة حوالى الواحدة ظهراً ..

وهنا أحس الضباط تأخر عرابي وزمليه وانكشفت المؤامرة عندما أبلغهم بعض ضباط حرس الحديو موضوع المحاكمة والتقبض على زعمائهم . وأقسم الضباط على المصحف والسيف أن يقنوا في سبيل الله والوطن .



محمد عبيد
البحر أسوار تكنت نصر النيل . ودك الحصار .
ولولا ما استمرت الثورة

فهاجوا جميعا ، ونهض البكباشى محمد عبيد — بطل معركة التل الكبير
 فيما بعد وأحد أبطال هذه الثورة — يجمع الجند استعداداً للسير ، وحين
 أراد قائده خورشيد بك الاستفهام عن سبب تحريك الجنود أمر بالتبض
 عليه . . وسار الآلاى بقيادته إلى قصر النيل ، وبينما كان الآلاى فى طريقه
 رأى الحديو الجنود وهم يتحركون . . فأحس أن البناء يتداعى ، فبعث
 إليهم كبير ياورانه الفريق راشد حسنى « للعروف بأبى شنب فضة »
 ليعدلوا عن قصدهم . . ولكن لم تجد نصيحته نفعا !

وصل الآلاى قصر النيل وأحكم البكباشى عبيد حصاره ثم أمر
 سريتين بالاستعداد وتركيب السناكى واقتحام أسوار الشكنات . . وما
 هى إلا لحظات قصيرة حتى ألقى الشراكة أنفسم محاصرين بالضباط
 والجنود والفلاحين فتولاهم الرعب وبادر عثمان رفقى بالفرار فى حالة مخزية
 من إحدى النوافذ الخلفية . . وأخذ الضباط والجنود المصريون يبحثون
 عن زعمائهم المعتقلين حتى ألغاهم البكباشى محمد عبيد فى إحدى الزنانات
 ففك قيودهم بين فرحة الضباط وابتهاج الجنود .

وخرج الزعماء الثلاثة منتصرين على رأس آلاياتهم متجهين إلى
 عابدين . . ولم يكدهم يصل آلاى طرة نبأ اعتقال قائده عبد العال حلمى
 حتى قام البكباشى خضر أحد ضباط هذا الآلاى بحجز قائد الآلاى
 الجديد ومعه كبار الضباط فى إحدى غرف القشلاق وتحرك بالجنود لنجدة
 الزعماء من براثن الشراكة . . وما كاد السناكر يركبون القطار حتى

اتصل معاون محطة طرة رأساً بالحديو يطلبه على تمرّد الجنود وتحركهم إلى قصر النيل . . ولكن كان هذا النبأ قد وصل بعد الإفراج عن الزعماء فأرسل الحديو إلى البكباشي خضر ياوره ينصحه بالرجوع بالجنود إلى الثكنات حيث قد صدر العفو عن الزعماء وإطلاق سراحهم . . فلم يلق البكباشي خضر له بالا واستمر في طريقه محذراً ضباطه وجنوده من مكاييد السراي ؛ فربما يكون في الأمر خدعة ، مؤكداً أنه لابد أن يصل الآلاى إلى قصر النيل حتى يستوثق الجيش من سلامة زعمائه .

وصل الآلاى إلى عابدين فاستقبله الآلاى الأول بالتحية العسكرية وعزف الموسيقى . . واحتشدت الجماهير تشاهد هذا المنظر غير المألوف .

.. كل هذا والحديو يراقب احتشاد الجنود بين تحية الجماهير فأدرك خطورة الموقف واستدعى وزراءه ومسئاريه وتشاور في الأمر ، فأشار سامى البارودى باشا وكان وزيراً للأوقاف بأجابه طلبات الجنود في لباقة .

« إنهم يهتمون للحديو . . إنهم مثال الطاعة . . فما الضر من تحقيق مطالبهم العادلة ؟ »

أخى الحديو رأسه ونزل عن كبريائه وأذعن للأمر الواقع وأعاد الزعماء الثلاثة إلى مناصبهم وعين « محمود سامى البارودى » وزير الأوقاف وزيراً للحرية .

اتصر الفلاح ، والنف حوله الفلاحون ورأوا فيه الفلاح الذى استطاع أن يهزم النراكسة ويتحدى الحديو ويشور ضد الظلم والطغيان .

ولم يكن هذا شيئاً مألوفاً في مصر فإن مافعله عرابى في ذلك اليوم كان

كافيا ليجعله رجلا مرموقا تتجه إليه أنظار العسكريين والمدنيين على السواء .
إذ كان اقتحام قصر النيل لفك الزعماء الوثبة الأولى على قصر عابدين لا نزاع
الدستور .

وبهذه المظاهرة دخلت الثورة العراقية مرحلتها الأولى .

وثبة الجيش على عابدين :

وكدأب المستبدين حتى رياض رئيس الوزراء هامته وكانت هذه أول
مرة ينحني فيها رياض أمام رغبة فئة من المصريين . بل أكثر من ذلك أخذ
يخطب ود الضباط ابتهاجا بتلبية مطالبهم . . إلا أنه ظل يتربص كالثعلب وفي
أحدى الأزمات استقال البارودي وخلفه داود يكن (باشا) ابن عم الحديو
وهمت الوزارة ثانية تريد البطش برجال الجيش حيث أصدر وزير الحرية
الجديد منشورا به فيه على جميع الضباط بعدم ترك مراكز آلاياتهم ليلا
أونهارا إلا طبقا للأوامر كما أُنذر بأنه إذا اجتمع ضابطان أو أكثر فيصير
القبض عليهم رجال الضبطية .

أدرك الضباط ما يراد بهم فنظّموا صفوفهم . . ولما لمسوا دقة مركز
الحكومة وما يحاط بها من دسائس ، ومن تسرب النفوذ الأجنبي في
مرافق الدولة ، ومن كره الشعب لها يبتوا النية على قلب نظام الحكم
الشركسي وتوطيد حكومة دستورية في البلاد على أن يكون ذلك في مظاهرة
وطنية شاملة . . كما رأوا أنه لضمان نجاحهم لا يكفي الاعتماد فقط على رجال
الجيش وحدهم فقاموا بالاتصال برجال الحزب الوطني الحر الذين ضاقوا
باضطهاد الحكام ، وبالأعيان الذين أغفل وجودهم ، وبالعلماء الذين أضحو

لا رأى لهم ، ولما استوثقوا من تأييد شريف والبارودى وسلطان وقد حصل لهم على توكيل أمضاء النواب ووجوه الأقاليم سرا رأوا أن هذه اللحظة هي المناسبة لتنفيذ خطتهم ولا سيما بعد اختفاء أية بارقة أمل في اصلاح الموقف بعد إقالة القنصل الفرنسى دى رنج « الذى كان يرى تنفيذ مطالب الضباط باستقالة وزارة رياض ليحل محلها وزراء مصريون لم يرتكبوا الأخطاء التى تؤدى إلى الثورة العسكرية .. ولكن الحكومة وقد لاحظت تأييد « دى رنج » للشعب المصرى تخلصت منه مما سبب مخطط الرأى العام الفرنسى فى مصر وخاصة بعد بقاء المراقب الفرنسى « ديلينير » صنيعة



الواء على فهمى
« السياسة خدعة »

اللورد « ينكفيلد » وصاحب اقتراح تحويل السكك الحديدية المصرية والملاحة فى النيل إلى شركة انجليزية .

حدد عرابى يوم ٩ من سبتمبر سنة ١٨٨١ لتحرك الجيش إلى عابدين حيث خاطب جميع الآلايات التى بالعاصمة لموافاته بميدان عابدين فى الساعة الرابعة لعرض طلباتهم على الحديو

احتشد الجيش فى الموعد للضروب وكان أول من حضر آلاى الفرسان بقيادة الأميرالاي أحمد عبد الغفار ، فقد كان فى بدء الحركة

أشد الناقمين على الحكم الشركسى حيث عزله عثمان رفقى (باشا) من منصبه بدون سبب . ثم آلاى العباسية بقيادة عرابى يصحبه آلاى المدفعية وكانت بطاريات المدافع تتخلل أورط المشاة .

سار كل شىء طبقا لما أعده عرابى إلا أنه لاحظ خلو الميدان من الأميرالاي على بك فهمى الديب أحد الزعماء الثلاثة . . . وبالسؤال عنه أخبره بعض الضباط بأنه وزع آلاى الحرس — وقد كان قائدا له — داخل السراى وبأنه مون هذا الآلاى بكية وافرة من الذخيرة للدفاع عن الحديو إذا دعت الحاجة فبعث عرابى إليه أحد الضباط . . . ولما حضر سؤاله عرابى عن سبب نقض اتفاقهم وتوزيعه الجنود على منافذ السراى من الداخل ، فطمأنه على فهمى قائلا له : « إن السياسة خداع ! »

وعلى الفور أمره عرابى بسحب الآلاى ليأخذ مكانه فى الميدان بكية وحدات الجيش . فخرج آلاى الحرس واصطف فى المكان المعين له . . . ثم حضر آلاى قصر النيل بقيادة بعض ضباطه حيث امتنع قائده وكبار ضباطه من الخروج . . . وأخيرا قدم الآلاى السودانى من طرة بقيادة عبد العال حلمى وبذلك اكتمل الجيش فى عابدين . . . وبلغ عدد الجنود أربعة آلاف بأسلحتهم ومدافعهم وخيلهم . . . وغصت أطراف الميدان بالجموع الحاشدة تشاهد هذا الموقف الرهيب ؟

وفى الوقت الذى كان يتجمع فيه الجيش كان الوزراء والمستشارون والمراقبون الأجانب يتواندون على السراى . . .

وأخيراً خرج الحديو إلى الجيش ظنا منه أنه بنزوله إلى الميدان

يستطيع — بما له من الهبة التملدية — صد الضباط والجنود عن التمرّد ،
 فنزل من السراى يحف به المستر « كوكسن » القنصل الانجليزى فى
 الامكندرية حيث كان القنصل العام المستر « مالت » متغياً فى بلاده والسير
 أوكلن كلفن المراقب المالى ، وبعض ضباط الياوران . . وما أن وقع
 نظره على عرابى حتى ناداه . . فتوجه إليه عرابى راكبا جواده شاهراً
 سيفه وخلفه ثلاثون ضابطاً شاهرين سيوفهم كحرس له . . فلما دنا من الحديو
 مادده قذفاً :

« ترجل يا عرابى . . وأغمد سيفك ! »

فامتثل عرابى . . ثم صاح الحديو بالضباط الذين جاءوا خلف عرابى
 « أغمدوا سيوفكم . . وعردوا إلى أماكنكم » .

« فلم يفعلوا وظلوا ثابتين »

ثم التفت الحديو إلى عرابى الذى حياه التحية العسكرية فبادره قائلاً :

« ما أسباب حضورك بالجيش هنا ؟ »

فأجابه عرابى :

« جئت يا مولاي أعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات
 هائلة » .

الحديو :

« وما هذه الطلبات ؟ »

صرابى :

« إسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس النواب ، وإبلاغ عدد الجيش إلى العدد المحدد له في القرارات » .

قال الحديو :

« كل هذه الطلبات لاحق لكم فيها — وأنا خديو البلد وأعمل زى ما أنا عاوز ! »

ويقال إن كلمة عبيد أتت على لسانه . . فاجاب عرابي :
« لقد خلقنا الله أحراراً . . ولم يخلقنا تراناً ولا عقاراً . فوالله الذى لا إله إلا هو لن نكون عبيداً بعد اليوم » .

فما وصل الحوار إلى هذا الحد أشار المستر كوكسن على الحديو بالرجوع إلى السراى وأقبل معه كلفن المراقب المالى يخاطب عرابي بالنيابة عن الحديو :

إن طلب إسقاط الوزارة من حقوق الحديو . .
وطلب تشكيل مجلس النواب من حق الأمة لا من حقوق الجهادية
ولا لزوم لطلب زيادة الجيش لأن المالية لا تساعد على ذلك .
عرابي :

أعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد إليها إلا لأنهم أقامونى نائباً عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن إخوانهم وأولادهم فهم القوة المنفذة لإرادة الشعب ، وإنا لا نستطيع أن نزل عن طلباتنا . . ولن نبرح هذا المكان ما لم تنفذ !

القنصل :

وماذا تفعل إن لم يجب مطالبكم ؟

عراي :

أقولها كلمة أخرى .

القنصل :

وما الكلمة ؟

عراي :

لن أقولها إلا عند اليأس والقنوط .

القنصل :

علمت من كلامك أنك ترغب في تنفيذ اقتراحك بالقوة . . وهذا أمر
ينشأ عنه ضياع بلادكم .

عراي : كيف يكون ذلك ؟

ومن ذا الذي يعارضنا في إصلاح داخلتنا ؟ اعلم أننا ستقاوم من
يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة إلى أن نفنى عن آخرنا .

القنصل : وأين قوتكم التي ستدافعون بها ؟

عراي : عند الاقتضاء يمكن حشد مليون من العساكر يدافعون عن
بلادهم ويلبون إشارتي

وهنا انقطع الحوار !

٤٠ . ولم تمض ساعتان والجيش واقف في مكانه لا يريد أن يتحرك حتى تنفذ مطالبه . فاضطر الخديو في نهاية الامر — إذ لم يكن له سند أو قوة يستطيع أن يعارض بها مطالب الجيش ، ورغبات الشعب كما وجدها فرصة للتخاص من رياض لاستئثاره دونه بشئون الحكم — اضطر إلى أن يوافق على قبول هذه المطالب تدريجياً بإعفاء رياض من الوزارة وإسنادها إلى شريف ، ووعد بإجابة اللطيلين الآخرين .

وهكذا كان يوم وثبة الجيش على عابدين — يوماً مجيداً في تاريخ مصر حيث أضحى الخديو رأسه لمطالب الأمة العادلة .

مذكرة ٨ من يناير سنة ١٨٨٢ .

غير أن الانتصار الشعبي والنهضة الدستورية التي عمّت البلاد لم ترق في نظر الأجني الذي أظهر تبرمه أكثر من مرة من النظام الدستوري فظل يتربص حتى انتهز فرصة معارضة الهيئات الشعبية فأرسلت إنجلترا وفرنسا مذكرة مشتركة في ٨ من يناير سنة ١٨٨٢ جاء فيها :

« إن الحكومتين متفقتان كل الاتفاق على ضرورة منع أسباب الارتباك داخلية أو خارجية ويكون من شأنها تهديد النظام القائم في مصر ولا شك أن إعلان هذا التصريح الرسمي ميميع حدوث ماعبى أن يظراً من الأخطار التي قد تتعرض لها حكومة الخديو »
وكانت هذه المذكرة أول مظاهر التستر وراء حماية الخديو لتحقيق أغراض إنجلترا في احتلال مصر .

كما أنها كانت أيضاً أول مظاهر التجمع بين الدولتين المتنافستين
إيطاليا وفرنسا . ويبدو أنه لما أحس المستعمرون بتكاتف الوطنيين حول
مطالبهم ألف ذلك بينهم . . . وجمع شتاتهم !

استقالة شريف :

نزع هذا التدخل القناع عن وجهه فبعد أن كان خفياً مستتراً أضحى
جلياً سافراً حيث تقدم قسلاً الدولتين بمذكرة في ٢٦ من يناير سنة ١٨٨٢
يأيعاز من الراقبين الأجبيين ألا يحول مجلس النواب حق تقرير الميزانية .



حقيقة ان هذا تحد بالغ لكرامة
البلاد . . . ولكن (شريف) فكر
بعقولة الرجل السياسي ورجل الدولة
ورأى تفادياً من التدخل المسلح —
حيث بات واضحاً أن البلاد أصبحت هدفاً
للاحتلال العسكري — أن يرجىء
النواب البت في هذا الأمر حتى تمر
الأزمة بسلام ، ولكن غلب الرأي
القائل بضرورة تقرير نظر الميزانية في
الحال .

محمد شريف باشا
« الربان . . . الذي تسند به
الثورة أثناء العاصفة ! »

كما وجدها الحزب العسكري فرصة للتخلص من شريف ، وبهذا فقدت

الثورة باستماتته روح الاعتدال وأصبحت السيطرة للحزب العسكرى
باسناد الوزارة إلى البارودى .

وهكذا دخلت الثورة مرحلتها الثانية .

محاكمة الضباط الثراكسة .

وظلت عين المستعمر تترصد وتدبر كي تتحين الفرصة التى واتها بحلول
أزمة سياسية خطيرة بين الحديو والوزارة إثر مؤامرة الضباط
الجراكسة الذين اتهموا بمحاولة قتل عرابى فى ١٩/٤/١٨٨٢ وقد
قضى المجلس العسكرى على أربعين منهم بالتجريد من رتبهم وبالنفي المؤبد
إلى السودان .

فرأى الحديو تخفيف الحكم كما أشار ممثل إنجلترا عليه بعرض الأمر
على الباب العالى .

اشتد النزاع وتطور الموقف وزاد الموقف حرجا إعلان البارودى
ضرورة انعقاد مجلس النواب للاحتكام إليه .

كان لهذا الإعلان خطورته ، إذ أن الدعوة إلى اجتماع مجلس النواب
يجب أن تصدر عن الحديو .. وفى هذا الوقت وصل الوفد العثمانى الذى
حضر للتوفيق بين الجانبين المتنازعين ، ولكن لم يكدهذا الوفد يطلا
أرض مصر حتى كتب مستر « مالت » إلى دولته انه لابد من حدوث
اضطرابات قبل تسوية المسألة المصرية .. وان الأصوب استعجال هذه
الاضطرابات لاتأجيلها .. حتى يستساع التدخل العسكرى !

ثارت إنجلترا واستثارت معها فرنسا .. واستغلت الشقاق بين الحديو

..والوزارة قررت الدولتان إرسال أسطوليهما إلى مصر بحجة أن دعوة مجلس النواب بدون أمر الحديو والمجاهرة بخلع عن العرش يعتبران عمليين ثوريين يستوجبان التدخل .. ١

وسوغت الدولتان هذا العمل البغيض بحجتيهما لرعاياهما الأجانب ووقايتهم من الأخطار التي يستهدفون لها ...

الأساطيل .. ١

حضرت الأساطيل وتوالت الانذارات تطلب استقالة الوزارة واقصاء عرابي وتنحية بعض الضباط ، فقررت الوزارة رفض هذه المطالب ، إلا أن الحديو أعلن قبول مطالب الدولتين ، فاستقالت وزارة البارودي في ٢٦ من مايو سنة ١٨٨٢ محتجة على تدخل الأجانب ، ورضاء الحديو عن هذا التدخل ١

وهنا يحق للقلم أن يتوقف ليعترض على ما كتبه الأستاذ عبد الرحمن الرافعي في كتابه (أحمد عرابي) .

« . . ولو أن (عرابي) قبل هذه المقترحات : استقالة الوزارة ، واقصاءه عن القطر ، وتنحية بعض الضباط . وغادر البلاد ، لكان ذلك تضحية منه في سبيل مفاداتها من التدخل المسلح ا » .

فهل نسي أستاذنا الكبير أن هذا التدخل المسلح كان سيقع حتما ، حتى لو لم تقع مذبحة الاسكندرية ، أو بعبارة أخرى مشاجرة الحمار والملاطي .

ان الحوادث كانت تجري في طريقها المرسوم . . .
 والمؤامرة كانت محتمة الوقوع في إثر أى حادث أو عقب أى إنذار.
 حتى لو لم تقع مذبحة أو مشاجرة ، فالمستعمر كان يحفظ في جعبته الكثير
 وكان يسنده في مواقفه ، ويهدد له الطريق الجالس على العرش «توفيق»
 وما لبث أن تفاقمت الحال فقد هدد الجيش والبوليس معاً بأنه إذا لم
 يعد عرابى وزيراً للحرية في خلال ١٢ ساعة فإنهم يصبحون غير مسئولين
 عما يحدث .

وعلى هذا أرغم الحديو على إعادة عرابى وزيراً للحرية في ٢٧ من
 مايو سنة ١٨٨٢ وبقيت جميع الوزارات الأخرى شاغرة وظلت البلاد
 بلا وزارة مسئولة فترة من الوقت .

أخذ عرابى على عاتقه تحمل مسؤولية الأمن في البلاد ، وفي الوقت
 ذاته أخذ العدو يدبر المؤامرات والخطط ، فحرض قناصل الدولتين رعاياهم
 على النزوح من القاهرة والأقاليم إلى الإسكندرية ؛ ليكونوا تحت رعاية
 الأساطيل حتى غصت الإسكندرية بالأجانب . . وكان احتشادهم هذا من
 الأسباب التي أدت إلى توتر الحال ، كما أشاع سماسرة الدولتين احتمال
 وقوع القتال بين الوطنيين والأجانب .

وافضح المستور ، وانكشفت المؤامرة التي أخذت تعدو سريعا إلى
 غايتها المرسومة من قديم ، وكانت هناك حاجة إلى علة فوجدت العلة العاجلة
 في حينها ، وحدثت مذبحة يونيو في اليوم الحادى عشر في الإسكندرية . .
 وهكذا لجأت بريطانيا إلى حجة تنذر بها لإرتكاب الجريمة . . .

والحادثة في ذاتها من النوع الذي يحدث عادة في المرات حيث تكثر الطبقات والأجناس : فقد حدثت مشاجرة بعد ظهر يوم الأحد ١١ من هذا الشهر بين أحد الممالطين من رعايا إنجلترا وحمارة مصرى يدعى السيد العجان حول أجر حمارة ، فاستل الممالطى سكينا طعن بها المصرى فمات على أثرها . فاجتمع رعاى الأروام والممالطين والقبرصيين وهم مسلحون بالبنادق والخنجر . . وأخذوا يهاجمون الوطنيين الذين كانوا يستطلعون الأمر ، فسقط الكثير من المصريين بين قتلى وجرحى . . وثار جموع الوطنيين تحمل المراوات وتطلب الانتقام قتلوا ٤٥ أجنبيا ، وقتل من المصريين أكثر من هذا العدد بكثير ..

وامتدات الفتنة حتى الساعة السابعة مساء إلى أن حضر الجنود ومنعوا التجمهر ، وهدأت الحال

ولقد كان هذا الحادث نذرا لما ستمتخض عنه الأيام ، ودافعا إلى هجرة الأجانب ، واسراع الحديو بالسفر في اليوم التالى إلى الإسكندرية . ويتم العراقيون المحافظ (عمر لطفى باشا) بتدبير الحادث ، ويدللون على صحة ذلك بمكانة عمر لطفى عقب تدبيره (الحادث) بتعيينه ناظرا للجهادة بعد عزل عرابى من وزارة اسماعيل راغب (باشا) .

ويؤكد الشيخ محمد عبده صحة هذا الرأى بقوله في تقرير له كتبه في منفاه بسورية :

« حقا إن أكثر من اتهموا ، ومن قبض عليهم بعد الحادث يوم واحد ، كانوا يصيحبون بقولهم : لالوم علينا فإن سعادة المحافظ هو الذى كان يأمرنا بأن نضرب وأن نسرق ! » .

ومن هذا يتضح أنه لا يمكن أن يرقى الشك إلى اتهام عرابي بتدبير حوادث ١١ من يونيو كما يزعم خصومه ؛ لأن هذا الأمر مهما كانت نتائجه لن تكون في مصلحته .

هذا هو المرجح ، أما الأمر الذي لاجدال فيه ، فهو أن الإنجليز لم يكونوا بمعزل عن هذا الحادث . . فالذي أشعل الفتنة مالطى من رعايا بريطانيا ، وقد اتضح من التحقيق أنه أخ لحادم القنصل البريطانى مستر كوكسن والذي كان له اليد الطولى في تحريض الأجانب للتحرش بالوطنيين وسعيه الدائب في تسليحهم .

ويبين ذلك مما جاء في كتابه إلى حكومته :

« إن قنصل السويد العام وصل اليوم إلى الاسكندرية وعرض على مشروعا للدفاع عن الأوربيين ، ورغب في مواقعة ممثلى الدول عليه . . وقد أجمع الممثلون على أن تسليح ثلاثة أو أربعة آلاف تمهيداً لهذا الدفاع عمل بالغ الخطورة . . وأنه بجانب ذلك عمل يفضى إلى التصادم فى أى وقت ، وعلى ذلك اتصل ممثلو الدول بدولهم كي لا يشاركوا فى شيء من هذا ! »

كذلك كان لزميله المستر « مالت » القنصل الانجليزى فى القاهرة ضلع فى هذه المؤامرة . . وليس أدل على ذلك مما جاء فى كتاب كرومر « مصر الحديثة » فى برقيته التى أرسلها إلى وزارة الخارجية البريطانية ، يقول فيها :

« إنه قد يقع فى أى وقت بين الأوربيين المسلمين صدام مسلح . . وإن التدخل العسكرى ضرورة لا مفر منها » .

ومن هنا يتضح بل ويظهر جليا أن المسؤولية كلها تقع على عاتق السياسة
البريطانية الاستعمارية التي أمرت بإحضار الأساطيل ، فكانت سببا
في إثارة النفوس وهياج الحواطر ، وأوغرت صدور المصريين على
الأوربيين ، وأغرت الأوربيين بالاعتداء على المصريين ا
هذه الأساطيل التي كان الاستعماريون يزعمون أنها للحماية ، في حين
اشتم الوطنيون منها رائحة الإذلال حتى كانت الفتنة ووقعت المأساة ، وكانت
قنابل الأسطول بداية الاحتلال ا

الاضطرابات في وادي النيل . . وإن كانت النتيجة في النهاية قد اضطرت جلاستون أن يصدر الأمر بضرب الاسكندرية ، ثم يعيد للمأساة بإصدار الأمر إلى الحملة الانجليزية للقضاء على الثوار .

ولكن إنصافا للتاريخ نستطيع أن نقول إن الرجل كان لا يريد أن يكون هذا أسلوبه — مما سنشرحه فيما بعد — غير أن الدبلوماسية البريطانية في هذه الحقبة من الزمن كانت ضالعة في الأسلوب الاستعماري وكانت قد تشربت بروح التقاليديين أنصار « الأمبيرالزم » (الاستعمار والتوسع) حتى أن بعض أعضاء حكومته من حزب الأحرار كان قد جرت في عروقتهم دماء السبوري ودزرائيلي الذين كانا قد صاغا بسياستهما الخاصة إزاء المسألة المصرية سلسلة محكمة الحلقات بحيث غدا من الصعب على جلاستون بوصفه خليفتهما في الحكم تحطيم هذه السلسلة والخروج من نطاقها الفولاذي .

فعندما تولى جلاستون الحكم كانت في رأسه فكرة ثابتة هي : القضاء على الخطوط الرئيسية لتلك « السياسة الخارجية » الدولية التي اتبعها غلاة حزب المحافظين كسالسبوري ودزرائيلي والتي كانت تعتمد على التلون والانتهازية ، لأن الرجل كان يؤمن بأن هذه السياسة ستقضي على سمعة بريطانيا في العالم كله .

وكانت أمم الشرق في تلك الفترة الحافلة بتياراتها متوج بأفكار تحريرية جديدة ، وتبرز في محيطها ثورات وطنية تطالب بالإصلاح والديكتاتور ، وقد أثر عن جلاستون تأييده البالغ لقضايا الحرية في هذه الأمم المكافئة

حتى لقد خطب مرة في حفل سياسى كبير . . وكانت الأنباء تتوالى
باضطراب الأحوال الداخلية في أفغانستان (وكانت بعض صحف المحافظين
تغرى الحكومة بالتدخل العسكرى . .) قتل :

« إن المساواة في الحقوق بين شعوب العالم كبيرها وصغيرها أمر
يقتضيه الواجب الأخلاقى ، وتمسك به كل تقاليد الشرف ، ولندكر
جميعا أن قدسية الحياة الانسانية ذاتها — حتى في أكوام القرى
الأفغانية المنتشرة وسط الجبال الثلوجة القحلاء في صميم هذا الشتاء ، إنما
هى من الحرية والقدسية في نظر الاله الرحيم بالقدر الذى يساوبها بحياتها
نحن البريطانيين في قرى جزيرتنا المتحضرة ! »

وهكذا ما أن تسنح له فرصة لحديث أو لخطابة حتى ينهال على
مبادئ المحافظين وأسايلهم السياسية . . وخاصة مبادئهم في معاملة
الشعوب بالامتنسكار والتجريح .

. . ومع ذلك ، وبالرغم من كل هذه الجهود مجتمعة . . وبالرغم من
كل هذه الكلمات التى لا ترتاب عند سماعها أو قراءتها أنها صادقة . .
وبالرغم من هذه النية التى بان « صدقها » فى أكثر من تصرف ، وأكثر
من مناسبة — كانت هناك ناحية معينة من نواحي العالم يخيم عليها ظل
« دزرائيل » الكثيف ، ويرتسم فى عمق طابعه الاستعمارى العنيف . .
إنها مصر . .

مصر التى تفتحت عليها أعين السياسة البريطانية أكثر من ذى قبل .

منذ أن ضرب دزرائيلي ضربته السياسية البارة بسرعة شرائه أسهم الحكومة المصرية في قناة السويس من الحديو الفلس إسماعيل .

³ كان دزرائيلي زعيم المحافظين يحلم بخياله الاستعماري أن تتم سيطرة إنجلترا في يوم قريب على قناة السويس لاسبيا في ضمان اللواصلات إلى الهند فحسب ، بل لأنها ستكون أيضاً سبيلا إلى الاستيلاء على مصر ذاتها . . وعلى إمبراطورية إفريقية مترامية الأطراف . . توسع سلطان التاج البريطاني وتمد في رواقه . .

وبالفعل لم يمض على ذلك طويل وقت حتى كان أربعة أخماس المراكب المارة في القناة تابعة لشركات إنجليزية .

وعند ما تولى جلاستون الحكم بعد دزرائيلي لم يشاركه في كل أخلامه ، بل الواقع أن حكومة إنجلترا في ذلك الوقت لم تطلب أكثر مما كانت تأمله . . وهو أن تطمئن على سلامة القناة كطريق ملاحى أصبح له خطره وشأنه في مواصلاتها الامبراطورية — وهو أمر يتطلب (في رأى جلاستون) وجوب العمل على استقرار الأحوال المالية والسياسية في مصر ، بأقل حد ممكن من التدخل الأوروبي .

غير أنه ظهر عامل جديد على مسرح السياسة العالمية والمسألة المصرية :

فبينما كان جو مصر يغلى بالأحداث منذ منتصف سنة ١٨٨١ تيسر لفرنسا الاستيلاء على تونس في مايو سنة ١٨٨١ ، وعادتها أحلام التوسع الإمبراطوري الفرنسي في قارة (القرص والأحلام) . وأخذت فرنسا

تبرق وترعد وتفسكر في اتخاذ خطة حاسمة تلزم المصريين حدودهم . .
 وبتولى « جامبنا » رئاسة الوزارة الفرنسية بدأت العلاقات الفرنسية
 المصرية تدخل مرحلة حرجة ، فقد كان « جامبنا » من دعاة سياسة القوة
 التي هي مذهب الحزب الراديكالي الذي يرأسه .

ومع أن التحالف بين إنجلترا وفرنسا كان يبدو على أقوى ما يكون ،
 إزاء المشكلات الشرقية وبصفة خاصة مشكلة مصر ، كان جلاد مستون يرى
 أن حماية هذا الطريق للملاحة لا يتحقق بالتدخل الإنجليزي الفرنسي الذي
 كان « جامبنا » يدعو إليه جهارا نهارا ، بل يكفي تحقيقه تعزيز الأسطول
 البريطاني والحاميات الإنجليزية في كل من جبل طارق وجزيرة مالطة . .
 هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى كان جلاد مستون يرى وجوب تشجيع حكومة مؤلفة
 من العناصر التركية والتركسية والوطنية في مصر للسيطرة على الموقف
 وصحمان كسب تعاونها مع كل من فرنسا وإنجلترا .

وهنا اصطدم جلاد مستون بحقيقتين كبيرتين :

أولا هما — أن فرنسا كانت تمقت تبعض تغلغل النفوذ التركي في شمالي
 إفريقيا ، لأنها كانت ترمم سياسة استعمارية توسعية في المغرب ، ومن ثم
 فإنها تكره وتخشى أن تكون للامبراطورية العثمانية سيادة سياسية في أية
 بقعة من إفريقية بوجه عام .

والحقيقة الأخرى ظهور حزب من (غلاة الأحرار المصريين) هو

الحزب الوطني الذي اعتنق مبدأ « مصر للمصريين » لا للأتراك ولا للشركس ولا للأوروبيين أصحاب المصالح الضخمة في مصر .
وهكذا انقلب الوضع تدريجياً . .

ثم جاءت ظروف شغلت جلاد مستون عن تتبع تطورات مشكلة مصر بصورة مباشرة ، فقد نشبت الثورة البلغارية ضد الحكم التركي ، ثم الثورة الايرلندية الأولى بقيادة بارتل ، ثم بعد هذا كله اعتبارات مالية وثيقة جعلته يتفرغ لشئون الحزاة . . مما حدا به أن يترك شئون السياسة الخارجية فيما يتعلق بمصر بالذات لوزير خارجيته « لورد جرانفيل » .
وهكذا انتقل الوضع من محور إلى محور ، ووجد جلاد مستون نفسه تدريجياً بعيداً عن هذه المشكلة .

وكان جامبتا يطمح إلى تحقيق مشروع الاحتلال الفرنسي الإنجليزي المشترك لمصر ، ولكن جرانفيل كان أكثر دهاء وأبعد غاية من كل من جامبتا وجلاد مستون ، فقد استقل جرانفيل سياسة خاصة نحو المسألة المصرية . . وساعده مقوط وزارة جامبتا على السير في تنفيذها طبق تصميماته ، إذ كانت الحكومة الفرنسية التي خلفت حكومة جامبتا متحفظة إزاء سياسة التدخل في الشئون المصرية ، وترى أن يتم هذا التدخل — إذا كان ثمة ضرورة إليه — على قاعدة دولية عامة ، وبمعاونة الباب العالي .

وحين فرغ جلاد مستون قليلاً من مشكلاته . ونهياً له أن يكرس وقتاً أكثر للمسألة المصرية ، حاول أن يقنع رجال وزارته بوجوب اشتراك مؤتمر أوربي عام في حل المسألة المصرية وخاصة أن الوزارة الفرنسية

القائمة حين ذاك تشترك معه في هذا الرأي ، ولكن جرائيل الدهاية كان قد سار شوطا بعيدا في سياسته ووجد من أعوانه الانجليز في مصر وعلى رأسهم القناصل والمراقبون الماليون ماعاونه على امتلاك ناصية الموقف في الوزارة الإنجليزية حتى لقد اكتسب إلى صفه أغلبية الوزراء الانجليز الذين ذهبوا معه إلى أن اقتراح جلاستون غير عملي .

وتعاقبت الأحداث في سرعة مذهلة على السرح المصري إلى حد أن جلاستون — وهو على رأس حكومة الأحرار وهو الذي ينادى بوجوب اتباع سياسة تنهض على أساس الاستجابة الرامية لإملاءات العدالة والشرف يجد نفسه يتفق مع لورد جرائيل على إصدار الأوامر الصريحة للأميرال سيمور بضرب الإسكندرية . . . ثم يجد نفسه مرة أخرى « مضطراً » إلى أن يصدر هو وجرائيل أيضاً أمراً إلى الجنرال ولسلي بضرب العراقيين في معركة حاسمة واحتلال مصر . . . وهكذا نفذ جلاستون مرسومه له خصمه دزرائيلي . . .

واستباح جلاستون خرق حرمة الشعوب وهو الذي كان ينادى بوجوب للعطف وتأييد الحركات الوطنية ووثبات الشعوب .

. . . وهكذا تنسك جلاستون لمبادئ الأخلاق . . . والعدالة . . . والشرف وارتكب كل ما هو مناف لمبادئ الأخلاق . . . والعدالة . . . والشرف !

ميثاق النزاهة

لم يعد سرا بل صار أمراً شائعاً بين الحكومات والساسة أن الانجليز يريدون السيطرة على مصر . . فرأت الدول وعلى رأسها فرنسا إجباط المحاولة البريطانية باتخاذ عمل حاسم لتسوية المسألة المصرية بالطريق الودى وعدم حلها بالضغط الأدبى أو بمجىء الأساطيل وقد بعث السيودى فرنسيه رئيس الوزارة الفرنسية إلى سفيره فى لندن لاقناع الحكومة الانجليزية بهذا الرأى . . فوافقت واقترحت انعقاد المؤتمر بالقسطنطينية وأن يكون أعضاؤه سفراء الدول الست العظمى لدى الباب العالى الذى عارض الاشتراك فى هذا المؤتمر بحجة أن الحال لا تدعو لذلك . . وأن الوفد الذى سبق إرساله برئاسة درويش (باشا) كاف لفض الخلاف .

. . وأخيراً عقد المؤتمر فى ٢٣ من يونيو سنة ١٨٨٢ بسفارة إيطاليا بحضور ممثلى (بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا وإيطاليا والنمسا) بدون اشتراك ممثل للسلطان . . . وقد اتخذ المؤتمر فى بدء اجتماعه إعلان الزوتوكول الخاص به والمعروف « بميثاق النزاهة » بناء على اقتراح سفير إيطاليا وهذا نصه .

« تتعهد الحكومات الممثلة فى هذا المؤتمر بأنها فيما مستخذة من قرارات بشأن المسألة المصرية لا تريد أن تأخذ لنفسها أو لرعاياها أى

امتياز إقليمي أو تجارى فى مصر يكون خاصا بها ولا يكون للدول الأخرى الحق فى الحصول عليه ا .

الضرورة القصوى !

هذا هو العهد الذى ارتبطت به الدول ومن بينها إنجلترا فى مؤتمر الأمستاتة ولكن إنجلترا حين أبرمتها كانت تنوى تقضه كما نقضت سائر عهودها فى المسألة المصرية فى الوقت الذى زعمت فيه الموافقة على هذا الميثاق كانت تستعد للحرب ويجهز جيشها لاحتلال مصر ا

فى اليوم التالى لانعقاد المؤتمر قرر المجتمعون عدم التدخل فى شئون مصر فى أثناء فترة انعقاد المؤتمر . . فعارض فى ذلك مندوب إنجلترا وهو « اللورد دفرين » من أشهر سياسى هذا العصر الذى أشار إلى أن الفوضى قد تمكنت من مصر من جراء ثورة الجيش وأن هذه الفوضى قد أدت إلى ارتباك الادارة ، وشل حركة التجارة ، وفقدان الثقة ، والتوقف عن سداد الضرائب حتى عجزت الحكومة عن الوفاء بديونها حيال الأجانب ، وتعرضت حياة الأوربيين للخطر . . واقترح أن يضاف إلى العهد الأخير جملة « إلا للضرورة القصوى ا » .

. . وبإضافة هذه الجملة أصبح انعقاد المؤتمر عبثا لما أيسر أن تخلق إنجلترا فى أية لحظة تلك الضرورة القصوى . والواقع أن إنجلترا كانت قد وطدت العزم على الانفراد بالعمل . . وفى ذلك يقول اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » عندما جاء ذكر المؤتمر :

« ليس من الضرورى أن نقف طويلا عند إجراءات المؤتمر المملة . .

وقد كان اللورد « جرانفيل » واللورد « دوفرين » يفهمان تمام الفهم ماذا يريدان . . . ولقد رغبا في أن يوطدا النظام في مصر وكانا يقضين إلى تلك الحقيقة التي مؤداها أنه بغير استخدام القوة المادية فلن يوطد ذلك النظام ! » .

وبذكر اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية لحكومة الاحرار في ذلك الوقت واللورد دوفرين سفير إنجلترا لدى الباب العالي يهنا أن تفت قليلا عندهما فقد اتضح في الصفحات (السابقة) الدور الذي قاما به لتسوين الاحتلال العسكري وصراعهما مع رئيس الوزراء البريطاني غلادستون رئيس حزب الاحرار الذي أراد أن يخطط للسياسة البريطانية أسلوبا جديداً يبنى على قواعد الأخلاق والعدالة والشرف !

ولنعد إلى « ميثاق الزاهة » فقد انكشف المستور وأصبح واضحاً أن إنجلترا تريد أن تسوغ لنفسها التدخل في شئون مصر على أن يكون هذا التدخل حريياً بل أضاف اللورد دوفرين — تنفيذاً لستر أغراضه — أن إنجلترا لا ترى أن يكون وقع الثورة في مصر بوساطة إنجلترا بل ينبغي أن يقوم بهذا الواجب صاحب الشأن في ذلك وهو تركيا صاحبة الحق الشرعي .

قال ممثل إنجلترا هذا — وهو واثق في الوقت ذاته — من أن الحكومة التركية على ما هي عليه من التردد والضعف بحيث لا تقوم أو حتى تستطيع أن تفكر في أن تقدم على هذه المهمة كما هي عاجزة

عن مجرد إرسال تجريدة عسكرية لإقرار هبة السلطان ولا حجام
السلطان أيضا بطبيعة الحال عن أن يظهر أمام المصريين — وهو خليفة
المسلمين — بنصرة الدول المسيحية عليهم !
.. وهنا نخلو الجو لانجاترا وحدها في مصر لتتم بأساطيلها الرياضة في المياه
المصرية خرق حرمة العهد والمواثيق !

ضرب الإسكندرية

شرع الأدميرال بوشامب سيمور « أميرال الأسطول الإنجليزي في مياه الإسكندرية ينتحل العاذر إلى فتح باب الشر والغدوان كي يحقق مطامع دولته وتعجل بضرب المدينة قبل وصول الأميرال « دويل » قائد أسطول بحر اللانش — وكان أرفع منصبا — حتى يشول إليه شرف الانتصار ! .



كانت الأسباب التي انتحلها سيمور كما جاء في برقيته للرسالة إلى حكومته :

« هي مشاهدة أحد الحصون تجرى فيه بعض الترميمات . . . ومن أن هناك نية لردم البوغاز حتى يسد مدخل الميناء . . . »
.. فوصل الرد من الأميرالية البريطانية ونصه :

الأميرال سيمور « تعجل الضرب ليكون له شرف الانتصار »

« أوقف العمل فوراً في

التحصينات ، فإذا لم يوقف : فخطم الطواحي وأسكت البطاريات ! »

.. أوفد عرابي قائد البحرية المصرية إلى رياسة الأسطول يكذب هذا الادعاء ، ويثبت حسن نية الجانب المصري ، وعدم وجود أية نية عداية وشهد بذلك الأميرال « كوزاد » قائد الأسطول الفرنسي بمياه الإسكندرية الذى أبلغ حكومته الأمر ، فقررت على لسان وزير خارجيتها : « إن تصرف الأميرال الإنجليزى بهذه الصورة يعد عملاً عداثياً هجومياً ضد مصر وإن الزلمان الفرنسى يعارض خرق مبدأ حرية الشعوب ، وإنه بناء على ذلك صدر الأمر إلى الأسطول الفرنسى بالانسحاب من المياه المصرية ، إذا ما كان هناك تصميم على إطلاق المدافع » .

.. وانسحب الأسطول الفرنسى من المياه المصرية — وبذلك خلا الجو للأسطول البريطانى وانطلقت يد الأميرال سيمور فى العمل ... وكان ذلك أقصى ما تتمناه السياسة البريطانية فى ذلك الوقت .

وفى يوم ٧ من يوليو أرسل « سيمور » إنذاراً آخر بإزالة المدافع من فوق البطوابى إذ وصل إلى علمه — على حد قوله : « أن هناك مدفعين على وشك التركيب على شاطئ البحر » .. ! نأكد له اللواء طلبة عصمت (باشا) قائد حامية الإسكندرية أن هذه الأخبار عارية من الصحة ..

.. فما الذى فعله (سيمور) إزاء كل هذه النيات الحسنة والتوكيدات

القاطعة من جانب المصريين . . . ؟

أرسل يستأذن الحكومة البريطانية فى ضرب مدينة الإسكندرية عند شروق الشمس فى الحادى عشر من شهر يوليو ... وأنه سيشرع فى الضرب بعد ٢٤ ساعة من تسليم الإنذار إلى الحصون القائمة على أبوغاز

إن لم تسلم أسلحتها ، على أن تقوم القوات المصرية بإخلاء مواقعها ! . . .
كما عرض الأميرال ضيافة الحديو توفيق على ظهر سفينة حربية إنجليزية
حتى لا يتعرض للخطر !

. . . ولا شك أن الغرض من هذا كان محاولة إسباغ (الشرعية)
على هذا العمل العدواني بالحجج المقتعلة التي يتذرع بها المستعمر على الدوام . .
واعتذر توفيق في بادئ الأمر . . إلا أنه — مما يؤسف له —
عاد وقبل التعاون مع أعداء البلاد .

وبمجرد وصول الإنذار عقد اجتماع حضره كبراء البلاد وقادتها
وشهده الحديو . . .

وكان رأى البعض التسليم بلا قيد ولا شرط . . وما لبثوا آخر الأمر
أن اتخذوا القرار التالي — وكان آية في الحكمة والوطنية — ردأ على
الإنذار البريطاني :

(لم تفعل مصر شيئا يقتضى إرسال هذه الأساطيل المتجمعة . . ولم تقم
السلطة المدنية أو العسكرية المصرية بأى عمل يسوغ مطالب الأميرال سوى
أنها قامت ببض الترميمات الاضطرارية فى أبنية قديمة .

. . ونحن هنا فى بيتنا ووطننا !

— ومصر الحريصة على حقها وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى
مدفع أو أية طاية دون أن تسكره على ذلك بحكم السلاح !
. . فهذه لذلك تحتج على بلاغكم ، وتحملكم مسئولية هجوم الأساطيل ،
وإطلاق المدافع على بلد آ.ن. نعلم بالسلام .

وأيضاً تقرر مصر من قبول باب المسألة قبول إنزال ثلاثة مدافع
يختارها الأميرال ، ولن تجاوب للدفع المصرية على مدافع الأسطول
إلا بعد إطلاق الطلقة العاشرة . .)

وهنا ينتهى البيان .

غير أن (سيمور) لم يبال حرية الشعوب ، وبدأ الضرب فى السابعة
من صباح يوم ١١ يوليو .

مواقع الحصون من موقف الأسطول :

إن حصون الاسكندرية القائمة على طول شاطئ البحر تنقسم ثلاث
مناطق بالنسبة لتعرضها لضرب الأسطول :

١ — المنطقة الأولى ، وهى شرقى المدينة . وليس بها غير حصن
السلسلة وهذا الحصن لا نعهده قد اشترك فى القتال .

٢ — المنطقة الثانية ، وهى التى شمالى المدينة وهى عبارة عن حصون
قايتباى والهلالية والأطية ، والاسبتالية ، ورأس التين ، والفنار .

٣ — المنطقة الثالثة ، وهى التى غربى المدينة وكان بها حصون
صالح أغا ، والبرج رقم ١٥ ، وأم قتيبة ، والعجمى ، والمرايط .

أما الاسطول البريطانى فكان مؤلفاً من ثمانى مدرعات كبيرة ،
وخمس سفن صغيرة غير مدرعة .

وقد كانت المدرعات تنقسم قسمين :

الاسطول الخارجى :

وكان مؤلفا من المدرعات الخمس : ألكسندرا ، وائل سكيبيل ، وسلطان ، وسوبرت ، وتمير . ومهمته تتحصر فى الوقوف خارج الميناء فى عرض البحر ومهاجمة حصون المنطقة الثانية .

والأسطول الداخلى :

وكان يتكون من ثلاث مدرعات : انفسيل ، ومونارك ، وبنلوب بقيادة (سيمور) ومهمته أن يقف فى الجزء للتقدم للميناء ويهاجم حصون المنطقة الثالثة .

وأما السفن الخمس الصغيرة فكان عليها أن تقف خارج منطقة الضرب وتشارك فى مهاجمة حصون المنطقة الثالثة عندما تحين الفرصة نظراً لقصر عمق غاطسها .

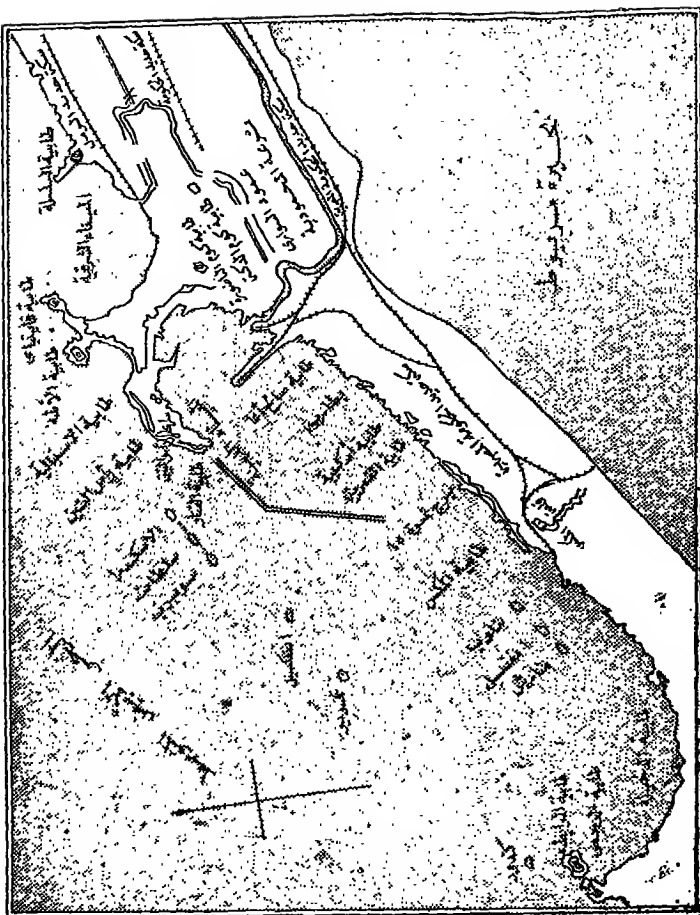
.. ونظرة واحدة إلى موقف الأسطول بالنسبة للطوابى كما هو موضح فى الخريطة وخصوصا الداخلى نستنتج ما يأتى :

١ — إن المخاوف التى ادعاها الاميرال من خطر الطوابى على الاسطول كانت مخاوف غنقلقة أراد بها تسوينغ فعلته .

٢ — إن سيمور لم يحس أية خطورة من هذه الطوابى .. ولذلك دنا منها هذا الدنو الكبير لثقلته بضعف تأثير مقذوفاتها .

وقد كانت النسبة بين قوة الحصون وقوة الأسطول : ١ : ٦ يضاف إلى ذلك أن المدافع المصرية كانت قصيرة المدى ، وكان الجنود الإنجليز ثلاثة أضعاف الجنود المصريين ، إذ كانت حامية الإسكندرية عند ضربها مكونة من ٤ أورط مشاة هـ : ٢ جى و ٤ جى و ٥ جى و ٦ جى ومجموع

خريطة حصون الإسكندرية والسفن الإنكليزية التي ضيرتها في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢



عساكرها ٧٤٦٣ من المشاة ومن آلاى من طوبجية السواحل قواه
 ١٧٦٢ جنديا ومن أورطتين سوارى من الآلاى الأول عدد عساكرها
 ٢٦٢ جنديا بحيث لم يتجاوز المجموع الكلى ٩٤٨٧ جنديا وضابطا .
 وقد باغت خسائر الانجليز في هذا اليوم ٦ قتلى و٢٧ جريحاً ، أما
 قتلى المصريين وجرحاهم فقد تعذر معرفة عددهم بالضبط ، وإن كان قد زاد
 عن ذلك بكثير وقد قدرهم « ستون باشا » بنحو ٧٠٠ فرد .
 وبما يذكر أن الذخيرة التى استهلكها الأسطول البريطانى كانت
 جسيمة للغاية إلى درجة استنفدت فيها المدرعات الكبيرة في نهاية اليوم
 كل ما كان بها من ذخيرة ..

بسالة جنود المدينة :

ولقد أبلى الجنود المصريون بلاء حسناً ، وظلوا يقاومون بكل أمانة
 وشرف فلا تراجع ولا انسحاب ، وكان بلاء المدفعية مشرفاً للغاية ولم
 يتركوا مدافعهم لحظة وكانت الحصون تدك عليهم دكا . .

وفي ذلك ، يقول « البارون دكيوزل » وكيل مصلحة الجمارك الذى
 كان على السفينة تبحور أمام الإسكندرية في كتابه : ذكريات رجل
 إنجليزى عن مصر صفحة ٢٠٠ ما نصه .

« لقد ثبت جنود المدفعية المصرية في مواقعهم أمام نيران الأسطول الهائلة
 الفتاكة ثباتاً دل على بسالتهم وبطولتهم النادرة .

ولم ينقض الضرب إلا في منتصف الساعة العاشرة صباحاً من يوم .

١٢ من يوليو ؛ لأن المصريين إذا كان لديهم مدفع في موقع لم يكن قد سقط بعد ، ظلوا يستعملونه إلى أن يكره هذا المدفع على السكوت إكراها .

وقال كذلك المسيو سكوتيدس وكيل قنصل اليونان بالإسكندرية في كتابه « مصر المعاصرة وعراي (باشا) » صفحة ١٦٨ :

وكانت قذائف المدافع المصرية تسقط في البحر وهي في منتصف الطريق والبعض الآخر يصطدم بمدافع الإنجليز الضخمة فيرتد عنها كأنها جسم من المطاط ثم يغوص في الماء .
ومع هذا فليس ثمة إلا الإعجاب بما أبداه جنود المدفعية المصرية من البطولة والبسالة والثبات .

أما الأهالي المصريون فقد وقفوا موقف الكرامة والبطولة فبذلوا غاية ما في طوقهم من علاج الجرحى ومنع الجنود من الاستيلاء على المدينة وإظهار السخط والكراهية للمحتلين .

ولطالما ألقى في روع الناس كتاب التاريخ من تلاميذ « دنلوب » الاستعماري — ولا داعي لتحديد الأسماء — بأن الأهالي لم يجاهدوا حين اعتدى على مدينتهم مع أن المصريين جنوداً وأهالي أظهروا شجاعة نادرة في هذا اليوم العصيب . . أشاد بذلك جون نينيه السويسري في كتابه « أحمد عراي » .

حريق الإسكندرية :

وقد أشيع ، لعطا وكذبا ، أن بعض من غرر بهم أبواب السوايق اتهمزوا

فرصة تراجع الجنود المصريين عن المدينة لنهب متاجرها . . كما قيل .
كذلك : إن الأميرالاي (سليمان سامي) قائد إحدى الفرق قد أمر جنوده
بإحراق المدينة قبل مغادرتها . . ويقال — وهذا أمر محتمل أيضا —
إن مقذوفات الأسطول الشديدة كانت سببا في الحريق .

وقد حاول عرابي ومن معه القبض على ناصية الحال فلم يفلحوا ،
فقصده هو وأركان حربه إلى جهة كفر الدوار حيث وقع عليها الاختيار
لإقامة الموقع الدفاعي عن داخل البلاد .

الرص وصاحب الدار :

سكنت الطوابي . . وتوقف الضرب ، وترتب على ذلك ما ترتب من
احتلال وما جره الاحتلال وراءه من النتائج الخطيرة مما هو معروف .
وهنا ترتفع بعض الأصوات التي لا تسمع إلا في مثل هذه الأوقات ،
بأنه كان على عرابي أن يأخذ الموقف بالحكمة ، فقد قيل يومئذ — ولا
زال يقال مع الأسف حتى اليوم — إن معارضة عرابي في تسليم القلاع
هي التي جرت إلى الاحتلال !

فأى منطق هذا ؟ أليس تسليم القلاع بلا مقاومة هو إتاحة الفرصة
للاحتلال . . ؟ أفيكون معنى الاستقلال أن تقبل الاحتلال دون
مقاومة . .

انحياز الحديو إلى الأعداء

ضربت الاسكندرية ، وامتنعت عروس البحر ، وزبص الانجليز في انتظار الأمداد ، يعدون العدة للزحف ، وكل من له أدنى خبرة بالانجليز في حروبهم في ماضيهم أو حاضريهم ، يعلم أنهم يملكون البلاد بأيدي أبنائها ويقتلون الشعوب بسيف أعرأها . . . ولقد أتاح لهم نزول الحديو بسراى رأس التين في حماية الأسطول — الفرصة ليستعينوا بنفوذ الشرعى في تحقيق مآربهم الاستعمارية .



ضرب الاسكندرية
قنابل الأسطول « بداية الاحتلال »

فتلقاه سيمور بفرح كبير أ برق على أثره لحكومته :
« لقد احتلت رأس التين ، ولا تزال الاسكندرية تحترق . والحديو سالم في قصره يحرمه ٧٠٠ من البحارة » .

ولعل هذا التحول من جانب الحديو كان من أخطر الحوادث في هذه الثورة ، إذ شجع نزول العساكر الانجليزية إلى المدينة توطئة لاحتلال البلاد بعد ضرب القلاع .

لم ترتض مصر التسليم طائفة مختارة ، ففي هذا قضاء على حريتها وكرامتها وكيانها . . واختارت الحرب لتحافظ على شرفها في حين أخذ الحديو على عاتقه تقديم الوطن لقمة سائغة للمحتل ، فأذاع « سيمور » في ١٧ من يوليو سنة ١٨٨٢ منشوراً وزع في شوارع المدينة ، وهو أول منشور يعلن فيه الانجليز أنهم مكلفون من جانب الحديو ردع العصاة ، والمحافظة على النظام ! .

وشايح زاعب (باشا) رئيس الوزراء ميده وكان يؤيد مقاومة التدخل البريطاني حتى ضرب الاسكندرية ، ولم ينجح أن يستكتبه سيمور خطابا في اليوم نفسه يرفعه إليه جاء فيه :

« لى الشرف الرفيع أن أعلن لحضرتكم أن (عرابى) يشتغل الآن بإعداد وسائل الدفاع ، وذلك مخالفة لأوامر جناب الحديو ، فكونوا إذن على علم بأن الحديو عزم على عزله ، فهو لذلك المسئول عما يحدث . فأرجوكم أن تبلغوا مضمون هذه الرسالة إلى حكومة جلالة الملكة » .

ثم تعدو المؤامرة سريعا نحو غايتها للرصومة ، فيدعو توفيق (أحمد عرابى) للحضور إلى الإسكندرية محملا بإياه تبعة ضرب الاسكندرية أمام حسن مقاصد الانجليز !

واعتذر عرابى بأن البلاد في حالة حرب مع الانجليز بناء على قرار

مجلس الوزراء الذي عقد برئاسة الحديو ، والذي بمقتضاه تقرر رفض الإنذار الإنجليزي الذي وجهه سيمور في ١٠ من يوليو حتى لو أدى ذلك إلى القتال ثم أضاف عرابي :

إنه لا يليق له أن يكون في بقعة في يد العدو — وأنه من الأولى إيفاد الوزراء أو رئيسهم إلى كقر الدوار للتشاور في الموقف .

المجلس العرفي :

انكشف المستور ، وظهرت مشايعة الحديو للانجليز ، وفطن عرابي إلى أن (توفيقا) سوف يصدر قرارات تشل الحركة القائمة على قدم ومساك لمقاومة العدو ، فبادر عرابي بإصدار الأوامر المشددة إلى المديرين والمحافظين يحذرهم فيها اتباع أوامر الحديو الذي مالا الانجليز ، وأن عليهم أن يتخذوا الأهبة ويستعدوا للقتال .

وفي الوقت نفسه أرسل إلى يعقوب سامي (باشا) وكيل وزارة الحرية ليقوم بدعوة العلماء والأعيان للتشاور في الموقف وإصدار ما يجب عمله لمصلحة الأمة .

وفي مساء يوم ١٧ من يوليو عقد بديوان وزارة الداخلية مجلس من وكلاء الوزارات وكبار الضباط والوظفين ، وقرر المجلس المذكور الذي سمي « بالمجلس العرفي » والذي ظل فترة الحرب يتولى زمام السلطة نيابة عن الأمة ، دعوة قادة الرأي في البلاد والأعيان والعلماء في شكل جمعية عمومية سرعان ما انعقدت بعد ساعات قليلة ، وشهدتها الشيخ الإيتباني شيخ الإسلام وقاضي القضاة ، ومفتي الديار والنواب والتجار ، واتخذت

الجمعية قراراً خطيراً مؤداه إعداد الأمة للجهاد ، واستدعاء الوزراء إلى القاهرة .

وعندما بلغ خبر هذا سامع توفيق أصدر مرسوماً في ٢٠ من يوليو بعزل عرابي من وزارة الحرية وتعيين عمر لطفي (باشا) محافظ الاسكندرية بدلاً عنه ، وأردف ذلك بمنشور علق في شوارع الإسكندرية يسوغ فيه احتلال الانجليز للمدينة بحجة المحافظة على الأمن بعد أن أخلى عرابي الاسكندرية دون مقاومة !

ويفهم من منشور الحديو أنه كان يريد أن يقنع المصريين بأنه كان راغباً في المقاومة وعدم ترك المدينة بدون دفاع . . . ولدع (عرابي) يرد على ذلك بنفسه ؟ فقد جاء في تقريره الذي كتبه إلى حاميهِ المستر برودلي وهو في السجن :

« أصدر الحديو أمره في مجلس الوزراء إلى جنودنا ليجتاحوا قلعة العجمي ويمنعوا نزول الجنود البريطانية — فأفهمت سموه أن المشاة لا يستطيعون هذا لأنهم يتعرضون بذلك لنيران مدفعية السفن كثيراً فيكونون عرضة كذلك لأن يقطع عليهم الطريق إلى الإسكندرية » . . . فظهر على الحديو الغضب . . . وقال :

لماذا تسمون أنفسكم جنوداً إذا كنتم لا تستطيعون أن تمنعوا عدواً من أن ينزل جنوده ببلادنا !

ويمضي الحديو بعد ذلك متعاوناً مع الانجليز . . . أرسل يطلب القنصل الانجليزي حاثاً إياه أن يستحث حكومته لتخطو خطوة جديدة بلا إبطاء قائلاً له :

« إذا تباطأت إنجلترا في إرسال القوة التي تحتاج البلاد إليها ، فستكون عاقبة الأمر وخيمة إذ أن الشعور الوطني قد بلغ حداً كبيراً .

لذلك انسحبت حامية الاسكندرية لتتخذ مكاناً حصيناً يصلح لإقامة خطوط الدفاع عن داخلية البلاد ، وقد اتخذت جهة كفر الدوار مركزاً لهذا الدفاع .

ولم يحفل الشعب بأمر توفيق القاضي بعزل عرابي ، بل انعقدت الجمعية العمومية ثانية في ٢٣ من يوليو في نحو خمسمائة عضو على هيئة مؤتمر وطني يتقدمهم الرؤساء الروحانيون (شيخ الإسلام وبطريك الأقباط وحاخام اليهود) وأعيان البلاد وكبرائها ، وتولى عرض الموقف الإمام الشيخ محمد عبده الذي اختتمه بفتوى العلماء الثلاثة : « العدوى وعليش والخلفاوى » تنص على أن الحديو بأنحيازه إلى المعتصب يعد مارقاً عن الدين ، وعلى عدم قبول عزل عرابي ، وإيقاف العمل بأوامر الحديو . وهنا بدأت الحرب .

الحرب العربية

القيادة

عين عرابي اللواء (محمود فهمي) رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش
المصري بعد ضرب الإسكندرية . . وكان من أكفى رجال الهندسة



اللواء محمود فهمي
« خطة محكمة للدفاع عن البلاد »

العسكرية حيث اكتسب خبرة
عملية ، فقد سبق له الاشتراك في
حرب البلقان بين روسيا وتركيا
سنة ١٨٧٦ . . ووضع خطة
سديدة للدفاع عن البلاد كقيلة
بصد الانجليز وإيقاذ مصر من
هذه الحملة لو اتبعت بإحكام .

معمل الخطة :

اختار محمود فهمي خمسة
مواقع رئيسية لتكون مراكز
للدفاع عن البلاد :

الأول في كفر الدوار .

والثاني في رشيد .

والثالث بين رشيد وبحيرة البرلس .

والرابع في دمياط .

والخامس في الصالحية والثل الكبير . . وذلك لصد الهجوم من ناحية الشرق ومن جهة قناة السويس ، وقد أشار بسد ترعة الإسماعيلية بمجرد بدء الحرب لمنع وصول المياه العذبة إلى الموانئ الثلاثة (بور سعيد ، الإسماعيلية ، السويس) كما قرر ردم قناة السويس ذاتها لمنع العدو من اتخاذها قاعدة عسكرية .

مزايا الخطة :

لو أخذ بهذه الخطة لتحقيق ما يأتي :

١ — إنها كانت تحول دون وصول قوات بريطانية من الهند لتتصل بالقوات التي جلبت عن طريق البحر الأبيض .

٢ — كان من شأنها أن تحول دون وصول القوافل إلى الإسماعيلية بسهولة عن طريق القناة .

٣ — كان من شأنها كذلك أن يضطر العدو إلى عبور الصحراء الشرقية أو مهاجمة مصر عن طريق الدلتا ، وكلا الأمرين يعتبر مغامرة للهجوم نظراً لخلو الصحراء من قواعد التموين وموارد المياه ، كما أن الترع والجسور كانت ستعطل زحف القوات ولا سيما أن فترة الزحف كانت في أغسطس وسبتمبر وهما موسم الفيضان في مصر .

وهنا ينبغي أن نسجل تردد عرابي الذي خشي عواقب ردم القناة

مع أن رياسة أركان حربه تمسكت بهذه الحطة ظناً منه أن الانجليز لن يجسروا على اختراق « حيدة القناة » وكلنا نعرف كيف سارع العدو إلى خرق حياد القناة . .

وبهذا لم يتمكن من الدفاع عن الجهة الشرقية إلا بالقوة التي كانت تعسكر في التل الكبير على بعد ١١٠ كيلو مترات من القاهرة ولعل هذا الخطأ من جانب عمرباني هو العامل الرئيسي في انهيار خطة الدفاع .

القوات :

كانت القوات المصرية حوالى ١٩,٠٠٠ من الجنود النظاميين ، وبضعة آلاف أخرى من جموع العربان والجنود غير النظاميين والحفراء الذين كان ضررهم أكثر من نفعهم لعدم تدريبهم على أساليب القتال .

ووزعت هذه القوات على النحو الآتى :

٨,٠٠٠ فى كفر الدوار بقيادة اللواء طلبة عصمت .

٣,٥٠٠ فى (أبو قير) بقيادة اللواء خورشيد طاهر .

٢,٥٠٠ فى رشيد بقيادة اللواء على الروبى .

٥,٠٠٠ فى دمياط بقيادة اللواء عبد العال حلمى .

٦,٠٠٠ فى الجهة الشرقية بقيادة الفريق راشد حسنى .

وكانت تتبعه حامية الصالحية بقيادة اللواء سامى البارودى .

خطة الانجليز :

في ٢١ من يوليو ١٨٨٢ صدر الأمر بتعيين الجنرال السير جارنت ولسلي قائداً عاماً للحملة الانجليزية على مصر . . ولم يصل مصر إلا في منتصف أغسطس وظل يتولى قيادة القوات الانجليزية في مصر بعد ضربها في ١١ من يوليو الجنرال « اليزون » تعاونه قوة الأسطول بقيادة سيمور حتى وصول الجنرال ولسلي .

مجل الخطة :

كانت الخطة الأساسية للحملة الانجليزية هي غزو مصر من الشرق . وكان ذلك يقتضى اقتحام قناة السويس واتخاذ الاسماعيلية قاعدة للزحف على القاهرة .. على أن يقوم جزء من قوات العدو بشغل « قوات منطقة كفر الدوار » إخفاء لآتياء الهجوم البريطاني

الزم الانجليز خطة الدفاع بعد ضرب الاسكندرية حتى تصلهم الامدادات من الخارج ، فأخذوا في تحصين مدينة الاسكندرية بقيادة الجنرال اليزون الذي بلغت قواته حوالى ٤,٠٠٠ جندي عدا قوات الأسطول التي كانت حوالى ١٣,٠٠٠ وعلى الرغم من أن الانجليز كانوا يلتزمون خطة الدفاع في الميدان الغربى (ما بين كفر الدوار والاسكندرية) قبل وصول قواتهم الرئيسية بقيادة ولسلي فإنهم بكروا في خرق حرمة قناة السويس منذ ذلك الوقت على عكس ما كان يظن عرابى بل اتخذوها ميداناً لتحركاتهم العدوانية.

القوات :

بلغ عدد الجيش الانجليزى عندما اكتمل وصول الإمدادات التي

وردت إلى الإسكندرية والسويس ما يقدر بثلاثين ألف مقاتل كانت عبارة عما يأتي :

١٤٠٠٠ من المشاة

٣٠٠٠ من الفرسان

١٠٠٠ من المدفعية

٥٦٠ من المهندسين

والباقى لأعمال الهندسة والسكك الحديدية والإشارة

الميدان الغربى :

القصد بالميدان الغربى ما بين الإسكندرية وكفر الدوار .. وبالميدان الشرقى ما بين الاسماعيلية والتل الكبير .

ولقد وجه عرابى معظم عنايته إلى الميدان الأول وجمع فيه أهم قواته وأهمل الميدان الشرقى فكان ذلك السبب الأكبر فى الهزيمة .

منطقة الدفاع :

وكانت خطوط الدفاع عن هذا الميدان عبارة عن ثلاثة خطوط يبعد كل منها عن الذى يليه أربعة أو خمسة كيلومترات .

وكان بين كل خطين خندق عمقه ١٥ قدماً ، وبُنيت على المرتفعات الصالحة للملاحظة . واقع المدافع التى بلغت خمسين مدفعاً .

وأُسندت قيادة القوات وعددها ٨٠٠٠ جندي وضابط لطلبة عصمت تحت امره عرابى .

وقد قام ببناء الاستحكامات نحو خمسة آلاف من المتطوعين من مديريات البحيرة والغربية والمنوفية .

وجعل عرابي مركز قيادته عند كنج عثمان .

موقعة الرمل :

أول ما قامت به حامية كفر الدوار سد ترعة المحمودية لمنع المياه العذبة عن الإسكندرية ، فانزعج الإنجليز وهاجر الأوروبيون من الليناء ، وتعذر على قواتهم الحصول على الماء . . فزحفوا بثلاثة آلاف جندي بقيادة الكولونيل « سبتان » في أغسطس سنة ١٨٨٢ يريدون التقدم من جهة الرمل .. حمل المصريون عليهم بكتيتتين من المشاة ، وكتيتتين من الفرسان تحت قيادة البكباشين أحمد اليار ومصطفى عثمان ، ثم حاصروهم من جهه (أبو قير) بثلاثة بلوكات من الفرسان بقيادة اللواء خورشيد طاهر قائد خط (أبو قير) ، وهجم المصريون عليهم هجوماً شديداً اضطرهم إلى الإدبار ، وتعرف هذه الواقعة بوقعة الرمل حيث كان هجوم الإنجليز عن طريق هذه الضاحية .

موقعة غرب خورشيد :

وفي ١٧ من أغسطس قام الإنجليز بهجوم ذى ثلاث شعب على مقدمة الجيش المصرى : تقدم الجناح الأيمن بطريق السكة الحديدية من القبارى ، والثانى من طريق كوبرى المحمودية ، والجناح الأيسر من طريق الرمل ، وتقابل الجيشان وتقاتلا بالسلاح الأبيض ست ساعات ،

جرح خلالها قائد القوة البكباشي محروس الذى دافع دفاعاً مجيداً عن قطاعه . .

وانجلى المعركة بارتداد الإنجليز إلى الإسكندرية تحت جنح الظلام بعد أن وقعت بهم خسائر تزيد على خسائر المصريين .

معركة كفر الدوار :

وصل الجنرال « ولسلى » ليتولى قيادة الحملة فى ١٥ من أغسطس ؛ وبوصوله استكملت الحملة الإنجليزية إمداداتها التى بلغت ثلاثين ألفاً . . وما إن وصل المدينة حتى أذاع الإعلان الآتى على الأهالى فى ١٩ من أغسطس :

« بأمر الحضرة الحديوية يعلن الجنرال قائد الجيوش الإنجليزية بأن مقاصد الدولة البريطانية ليست إلا تأييداً لسلطة الحديو ولردع العصاة والقضاء على الفتن ، ولا مطمع للإنجليز فى غزو أو فتح » .
.. فهاذا كانت النتيجة . . ؟

زاد تصميم الأمة على الجهاد وعزم الشعب على الثبات ، وهجم الإنجليز فى اليوم الذى صدر فيه هذا المنشور بقوات كبيرة قتلها القطر المسلحة من جهة القبارى تساعدها قوات أخرى من جهة الرمل يربو عددها على القوة المصرية أضعافاً ، إلا أن المصريين تمكنوا من صدّهم جميعاً بعد أن كبدهم خسائر كبيرة .

ثم عاود الإنجليز الهجوم فى أيام ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ من أغسطس على مواقع المصريين بكفر الدوار إلا أنهم تمكنوا من صد العدو فاضطر إلى الانسحاب إلى الإسكندرية .

وهكذا كانت وقائع الميدان العربي سجلاً مجيداً من مجلات الكفاح الذي اشترك فيه الجيش والشعب .. وأنفق الشعب على المعركة حيث كانت خزانة الدولة قد نهبت .. نهبا الإنجليز غداة مهاجمة الأسطول .

وكان أشد ما يواجه (عرابي) في ذلك الوقت الحصول على المال — وللمال عصب الحرب — إذ أخذ مستر كلفن المراقب المالي جميع الأموال من الخزانة المصرية ووضعها تحت تصرف الإنجليز في الاسكندرية إثر هجوم الأسطول عليها .

ولكن التاريخ علمنا أنه إذا أجمع شعب على الكفاح فلن تقف في سبيله العقبات بل وكان من مفاخر هذه الثورة إسهام الشعب بكل ما يملك في تمويل الجيش مما يضيف على هذه الثورة الصفة الشعبية ويندر أن نجد في تاريخ الجروب حرباً كحرب الثورة العرابية . ينبذ فيها الشعب حكمه وينضم للتوارثم يقوم الشعب بالانفاق على الحرب . . فالخزانة خاوية ، والتجارة متوقفة . تجمع الأهالي الأموال وسائر الأطعمة والامدادات للقوات المحاربة ؟ وتبرعوا بعشرة قروش عن كل فدان على أن ينحصر ما تبرعوا به في المستقبل من ضرائب الاطيان .

وفي ذلك يقول الإمام الشيخ محمد عبده :
هل يقدر أحد أن يشك في كون جهادنا وطنياً صرفاً .. بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان . فقد تبرع الأمراء والأعيان والعلماء حتى النساء .

وقد ذهب الناس من فلاحين وعمال إلى الحرب راضين متشوقين لمقاتلة الإنجليز .

بقيت نقطة أحيرة عن الميدان العربي تقف عندها فهل أن أتقل
الحديث عن الميدان الشرقى .

فما أ كثر الكتاب والمؤرخين الذين يهونون من معارك كفر الدوار
للتقليل من شأن انتصارات الجيش المصرى فى هذا الميدان والتهوين من
شأن تعاون الشعب مع الجيش فى هذه المعارك .. ! هؤلاء عمدوا إلى
قلب الحقائق حين ذكروا أن هذه الوقائع كانت من أجل المناوشة
قط والتضليل .

والأمر غير ذلك . فوقائع الميدان العربى ولاسيما موقعة كفر الدوار
كانت معركة ولم تكن مناوشة .. ولم يكن الغرض منها التضليل بل كان
سبرا لغور الخطوط الدفاعية المصرية .

والقوات المناوشة التى تقصد التضليل تكون عادة فى معظم الأحيان
قليلة لا تزيد على المئات ، ولكن معارك كفر الدوار كانت تشترك فيها
القوات الانجليزية بالآلاف ، بل لقد زادت القوات الانجليزية التى اشتركت
فى معركة كفر الدوار فى يوم ١٥ من أغسطس سنة ١٨٨٢ عن عدد القوات
المصرية التى تقدر بمائة آلاف مقاتل . والواقع أن الحطة الانجليزية لم
تكن مبنية على التضليل فى الميدان العربى ، بل كانت قائمة على فتح ميدانين
وتزويد الميدان العربى وخطوط كفر الدوار بقوات إنجليزية كبيرة يمكن
بها فتح هذا الميدان إذا تمكنت القوات المصرية من صد القوات الانجليزية
فى الجهة الشرقية .

وإنه لما يؤسف له أن يذكر أن الحطة كانت للتضليل ، كأن المصريين

لم يكونوا يعلمون أهمية الميدان الشرقى .. بل الثابت والواقع كما ذكرنا في مجمل الخطة أنها كانت أصلاً موضوعة على أساس أن الميدان الشرقى هو الميدان الأول .. وكان قائد هذه الجبهة أرفع الضباط المصريين رتبة وأيسلهم في القتال الفريق راشد حسنى ، وإن اللواء (محمود فهمى) رئيس أركان حرب الجيش وضع الخطة على أساس ردم ترعة الاسماعيليه لمنع المياه العذبة ، و زدم القناة — إلا أن (عرابى) لم يأخذ بهذه الخطة لا لأنه كان يجهل أهمية الميدان الشرقى ، أو لأنه انخدع كما يذكر ذلك كثير من الكتاب ، بل لأنه أخطأ في تقدير الموقف كما سوف نشرح في صفحات تالية .

الميدان الشرقى:

التكتيك السياسى :

كانت خطة الحملة الانجليزية غزو مصر من الشرق والضغط على الحامية المصرية في كفر الدوار ، وكان ذلك يقتضى اقتحام قناة السويس . ولذلك وضع الانجليز خطة محكمة اتبعوا فيها تكتيكاً سياسياً بارعا كان له الأثر الأكبر في توجيه سير المعارك فلم يخل ميدان من توجيه نشاطهم ضد عرابى .

في العالم .. وفي الآستانة .. وفي مصر .

في الميدان الأول : تعللوا بحجة الخطر المحدق بالقناة ..

وفي الميدان الثانى : أذاعوا منشور العصيان .

وفي مصر : أطلقوا خيول سان جورج .

.. ولكل اسم من هذه الأسماء قصة .

قناة السويس

ما كاد الأنجليز يفرغون من ضرب الاسكندرية بحجة رعاية الأجانب حتى أخذوا يخوفون الدول بما زعموا من الخطر المحقق بسلامة القناة .. وكانوا يريدون من هذه الإثارة أن يزعموا امام دول مؤتمر الآستانة أن الظرف القاهر الذى امتلزم التدخل الحربى فى شئون مصر ، لم ينته بضرب الاسكندرية ، بل إنه ما زال قائماً .. ليتخذوا من هذا ذريعة لاقتحام القناة .

فأرسل جراتيل وزير خارجية بريطانيا إلى سفراء إنجلترا لدى الدول المشتركة فى مؤتمر الآستانة ليخبر كل منهم الدولة التى يقيم فيها بما يخشى من خطر على القناة . ويسألها : ماذا ترى من علاج لهذه الحال التى قد تفضى إلى كارثة تحل بالتجارة الدولية .. ؟
وفى الوقت نفسه أظهرت فرنسا من التردد حيال القناة مثل ما أظهرت حيال ضرب الاسكندرية .

ونقضت إيطاليا يدها من المسألة المصرية كلها ..

.. وهكذا انفردت إنجلترا فى موضوع القناة على نحو ما فعلت فى ضرب الاسكندرية من اختلاق العلل لخرق مبدأ حرية الشعوب .. فقد استباححت أيضاً تلك العلل فى خرق حرمة الممرات ذات الصبغة الدولية ، فقد زعمت أن هناك ترميمات تجرى فى طابية الجليل على مدخل بحيرة المنزلة غربى بورسعيد — تماماً كما تعللت فى ضرب الاسكندرية — وكلفت مسيمور قائد أسطولها احتلال بورسعيد والاسماعيلية .. ولم يمض يوم ٢٦

من يوليو إلا وقد اقتحمت السفينة الحرية «أوريون» ميناء بور سعيد وفي ٢٧ منه رست في بحيرة التمساح على مسافة أقل من كيلو متر واحد من الاسماعيلية وتبعها سفينتان أخريان ..

وفي ٢٩ منه وصلت إلى السويس على مقربة من مدخل القناة قافلة بحرية من أربع سفن حرية بقيادة الأميرال هوت .
وفي ٢ من أغسطس احتل الإنجليز السويس كما احتلوا ثكناتها التي أخلاها الجيش المصري دون مقاومة . ولا ريب أن إخلاء السويس على هذه الصورة كان من أكبر العيوب في هذا الميدان .

وعلى الرغم من هذا كله كان عرابي يردد استبعاده لحرق حرية قناة السويس بدعوى أن القناة إنما تبتدىء من بور توفيق على مسيرة ٣ كيلو مترات من السويس التي وقعت في قبضة الأعداء .

بقي أن نقول : إنه — وإن كان من أكبر أخطاء عرابي عدم المواقفة على ردم القناة — فمن الواجب أن نوضح قضا صورا مشوشة حتى استقرت في الأذهان بفعل السنين بما دأب خصوم عرابي أن يشيعوه وأهمها :

١ — موقف دلسيس من عرابي .

٢ — موقف عرابي من ردم القناة .

عرابي لم ينخدع

ردد الكثيرون القول بأن دلسيس خدع (عرابي) وأن (عرابي) «انخدع به» . والحقيقة أن دلسيس — بطبيعة الحال — كان يعارض موقف إنجلترا من انتهاك حرمة القناة ، لاثباتها مصر ولا للشورة العراية ، إنما —

على الأقل — للمحافظة على مشروعه إذ كان يخشى أن تؤدي سياسة الانجليز إلى سدها أو تحطيمها بأيدي الوطنيين .

١ — ففي ١٩ من يوليو أى قبل أن يقتحم الأسطول القناة ذكر «كارترت» فيما أ برق إلى جرانفيل بقوله : « أشرف بإخباركم بوصول السيودلسبس إلى الإمكاندية وأن يحثه إلى مصر في هذا الوقت بعد من سوء الحظ » .

٢ — وفي ٣٠ من يوليو أ برق جرانفيل إلى سفير إنجلترا بباريس يقول :

« بالنسبة لمسللك السيودلسبس فيما يتصل بحماية القناة ، أرغب أن تبسط للسيود فرسيه أن حكومة جلالة الملكة ترى من المسلم به أن السيودلسبس لم يعط ساطة ليتكلم أو يعمل باسم الحكومة الفرنسية » .

٣ — كما أن دلسبس كان يرغب من هذه المعارضة حمل حكومته على التدخل لحماية مشروعه . . وفي ذلك يقول « جون نينه » السويسري في كتابه أحمد عرابي :

« ولم يكن دلسبس كاذبا . . ولكن السياسة عرضته للكذب » .

« إحجام عرابي عن ردم القناة خطأ لا جهل » .

يجمل بنا أولا أن نلقى الضوء على ما كان يحيط بعرابي من ظروف قبل أن نهكم على موقفه .

فأولا : كانت إنجلترا تصور العرايين بأنهم « عصاة » فكيف تكون

الحال لورد م عرابى القناة ، ومؤتمر الدول الذى يبحث الموقف فى مصر منعقد بالآستانة ؟

والرأى العام العالمى يترب لى سجل ؟

وانجلترا تقوم بتلك الحملة المصطنعة بدعوى « الخطر المحدق بالقناة » .

مع أنه لم يكن قد حدث شىء على الإطلاق

وثانيا : كان عرابى يخشى لورد م القناة أن يصبح العالم كله عدو ثورته ، فهل كانت تحجم بريطانيا على أن تصفه بالطاغية الذى يردم القناة .. ويعطل التجارة العالمية .

وقد يقال — وهذا حق — إن رأى العالمى إن هو إلخرافة .. .
فماذا صنع المؤتمر ؟ وماذا صنع العالم عندما ضربت إنجلترا ميناء الاسكندرية ؟
ولعل أدق من صور موقف عرابى فى هذه المسألة « الشيخ محمد عبده »
حيث يقول فى مذكراته :

« عرابى اعتمد على دلشبس فى حماية القناة ، وكان يظن أن مس القتال يهيج عليه جميع الأمم ، لهذا ترك هذه الناحية عوراء »

ومن هنا نرى أن (عرابى) قد خانته التوفيق فى تقدير الموقف ،
فارتكب خطأين ساعدا على عدم إحباط خطة الانجليز :

الأول : عدم تحصين النفذ الشرقى إلى مصر التحصين الكافى ، حيث
صرف الجانب الأكبر من عنايته إلى الميدان الغربى .

الآخر : اطمئنان عرابى إلى حيدة قناة السويس ، وحرصه على إرضاء

الدول بالمحافظة عليها ، فلم يقدّم بدم القناة مع أن أركان حربها اللواء محمود فهمي رئيس أركان حرب الجيش المصري أشار بردها .

ولعل السبب الأول مبني على الأخير وهو استبعاد عرابي خرق حرمة هذه المنطقة الدولية .

ولكن الانجليز وضعوا نصب أعينهم « سياسة الأمر الواقع » ، ولم يأنسوا — كما أبه عرابي — بتلك الكرامة البراقة « الشرف السياسي » .

خديعة السلطان !

واليدان (الثاني) الذي حارب فيه الانجليز (عرابي) كان في الآستانة حيث الخليفة السلطان الذي كان المصريون يرون في عرابي مدافعاً عنه ضد انجلترا العتدية . . وأخذت انجلترا من جانبها تضغط على السلطان ليعلم « عصيان عرابي » مستغلة اهتمام السلطان الشديد بالاشتراك مع انجلترا في الحملة على مصر . .

وهكذا كان موقف تركيا منطوياً على الخطأ والتردد منذ شبت الثورة ، فهي تتحدث مع الحديو بوجه . . وتحدث (عرابي) بوجه آخر لتكسب من وراء هذا المسلك الملتوى نفوذاً وسلطاناً ، فخرت كل ما كانت تملكه من نفوذ وسلطان !

فبينما الجيش الإنجليزي يتقدم داخل البلاد ، كان الأمل يتضاءل في استطاعة تجهيز حملة تركية تشترك مع الحملة الإنجليزية في إخماد الثورة ، بما كان يشترطه الداهية اللورد « دوفرين » سفير انجلترا لدى الباب العالي

من شروط لحيء هذه الحملة ، واثقا من عدم مواءمة تركيا عليها ، كي يطيل أهد المفاوضات ويكون جيش بلاده قد تمكن من القضاء على الثورة وحده .. ومن ثم لا يكون هناك داع لحضور حملة أخرى .
أما الشروط فهي أربعة :

- ١ — ألا يتجاوز الجيش العثماني ستة آلاف جندي .
- ٢ — لا يدخل هذا الجيش مصر عن طريق البر أو ينزل الاسكندرية ..
- ٣ — عرض خططه الحربية على القيادة الانجليزية .
- ٤ — يصير سحب هذا الجيش بمجرد جلاء الجيش الانجليزي عن مصر ..

فرفضت تركيا هذه الشروط ، ففانت عليها الفرصة مع أنها لو بادرت بإرسال الحملة حتى بهذه الشروط لأدى ذلك لا محالة إلى جلاء الحملتين معا .
فما بعد . وكل السوابق التاريخية تثبت ذلك حتى في العصر الحاضر (جلاء القوات الروسية والأمريكية والانجليزية عن إيران بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . وجلاء القوات الانجليزية والفرنسية عن سورية وجلاء الجيشين العثماني والانجليزي نفسيهما عن مصر أيضاً بعد جلاء الفرنسيين في عام ١٨٠١) .

هدد دوفرين بقطع المفاوضات ، واشترط أنه لا يترضى التوقيع على أى قرار إلا إذا وصله قرار عصيان عمالي باللغتين الانجليزية والفرنسية وعليه توقيع الساطان .

.. وفي ٢٧ من أغسطس وافقت تركيا على ماتراه انجلترا وأن قرار

عصيان عرابي يصدر عقب التوقيع على الاتفاق ، غير أن إنجلترا اشترطت أن يعلن قرار العصيان في الحال...وحققت إنجلترا المهدف الذي كانت تبغيه .. وما أن ظفرت بتوقيع السلطان . حتى تنصلت من وعدها بحجة أن القرار لم يصدر بالصيغة التي أرادتها ...

وهكذا كان مسلك السلطان عبد الحميد خليفة السالمين . خدع مصر لتخدعه بريطانيا .. فهو ينعم على عرابي بالوصام المجيدى الأكبر . ثم يطعنه طعنة نجلاء وهو يدافع عن حقوق السلطان ...

خيول سان جورج

أما في مصر فقد اعتمد الانجليز على فرسانهم الذين دفعوا بهم إلى المعركة وفرسان هذا الميدان كانوا :

— علماء خانوا أمانة العلم .

— وأعرابا من البدو عملوا كجواسيس وتنكروا للوطن الذي يأويهم

— وضباطا خونة اغتالوا ضمائرهم ومدوا أيديهم ليطعنوا جيشهم

وإخوانهم في الدم والدين والجنس .

— وأعياناً دفع بهم الحديو في ذيل الحملة الانجليزية ليكونوا كلاب

حراسة للعدو ، وخداماً لأغراضه ورغباته .

وكان أبرز هؤلاء الفرسان :

إدوار بالمر :

كان أستاذاً للغات الشرقية في جامعة كمبردج استدعته الأميرالية

البريطانية لإجادته اللغة العربية ، وخبرته بأحوال المنطقة حيث كان عضواً

في جمعية كشف فلسطين ، وقد بدأ بالمر مهمته من يافا مرتديا الملابس

العربية ، متحلاً بشخصية تاجر إبل وتعاقد في أثناء رحلته — كما جاء في

مذكراته اليومية — مع مشايخ الطياحة كما اتصل ببعض مشايخ الطرايين ..

وقد توثقت صلته بالبدو حتى أطلقوا عليه « عبد الله أفندي » ، وكان يسمعهم الشجر العربي ، ويشاركهم في غنائهم وغذائهم ، واشترك بالرمع القوة التي إحتلت السويس في الأول من أغسطس ، ثم انطلق إلى الصحراء يحطم (و.ع.ه. مرة من البدو) أسلاك التلغراف ، ويحرق أعمدة التليفون ليقطع كل مواصلات بين عرابي وتركيا . . ولقى حتفه في سيناء مع زميله الكاتبين جل .

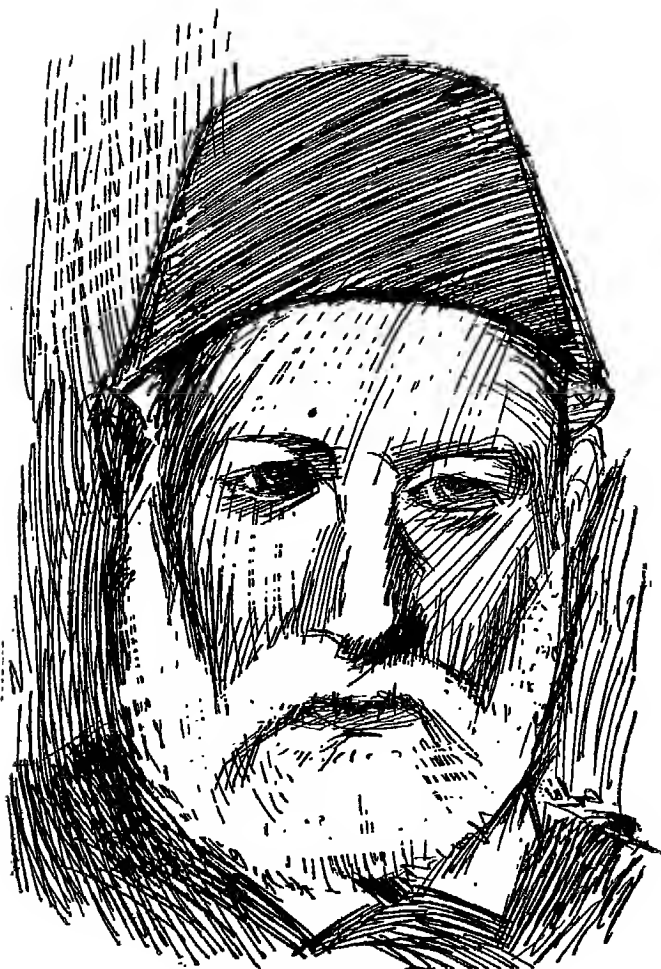
الكاتبين جل :

لم يقل نشاط جل غربى القناة عن نشاط « بالمر » شرقها فقد اتصل بأكبر مشايخ البدو فى هذه المنطقة — بناء على مشورة الخديو — الذى كتب اسميهما بنفسه كما جاء فى مذكرات جل الشخصية ، وهما: سعود الطحاوى فى الصالحية — وقد كان من أكبر ثقة عرابي ومحمد البقل فى وادى الطميلات .

وقد اجتذب جل الكثير من قبائل البدو بما كان يقدحه عليهم من أموال طائلة . . وأخيراً التقى بالمر ، وبدأ فى العمل معاً حيث أعطى جل زميله عشرين ألف جنيه ليوزعها على الأعراب الموالين ولكن حدث فى أثناء سيرها أن صادفهما فى صحراء سيناء أفراد من قبيلتي الخوايات والحويطات ، فكشبهوا أنهما يحملان مالا إلى الطياحة فأوثقوها وسرقوا ما معهما من مال ، ثم قتلوهما رمياً بالرصاص فى وادى سدر .

سلطان (باشا) :

بز بالمر وجل الانجليزين محمد سلطان (باشا) الذى كان — مع الأسف —



سلطان باشا
نائب الحديو المرافق للحملة الانجليزية

قبل الحملة الانجليزية رئيسا للحزب الوطني قبل رياسة عرابي لهذا الحزب حتى كان يطلق عليه في يوم ما « أبو المصريين » . . ثم أصبح بعد مجيء قوات الغزو نائباً للخديو توفيق المرافق للحملة الانجليزية .

قال الشيخ محمد عبده في مذكراته : « مركز الدسائس والمخابرات كان في الاسكندرية في مكتب يسمى قسم المخابرات العسكرية اجتمع فيه كثير من الانجليز من موطنى الحكومة المصرية وهن المقيمين بمصر . . وكان روح الجميع « سلطان باشا » وقد عرف (سلطان باشا) سلطة النقود على الأرواح فأخذ في التوزيع باسم الخديو والسلطان . واختار لبث الأفكار الطحاوى أحد ثقة عرابي ! »

وكان مساعد (سلطان باشا) في هذا المضمار « عثمان بك رفعت » ياور الخديو ، وكان ماهراً ذكياً أحدث تأثيراً كبيراً في نقوس عدد كبير من الضباط وبخاصة السراكسة ، (وعمر لطفى باشا) محافظ الاسكندرية .

أسماء . . وأسماء :

أما العسكريون ، فيما يؤسف له أنهم كانوا ضباطا خانوا أمانة الشرف العسكرى ، والواجب الوطنى ، والكيان الحلقى ، فباعوا وطنهم ، وغدروا بجيشهم من أجل ذهب براق أعمى عيونهم وأمات ضمائرهم ، من أجل أحقاد شخصية أو بسبب الاقياد الأعمى للعدو دون تقدير .

وأشهرهم الأميرالاي على يوسف الشهير « بنخفس » .

والتأتمقام عبد الرحمن حسن .

والأميرالاي أحمد عبدالغفار مع أنه كان في وقت مامن غلاة الثائرين ،
وأول الحاضرين من آلاى الفرسان فى ميدان عابدين فى مظاهرة
٩ من سبتمبر .

ولكن الحق . . والإغراء . . والضعف قد قامت بدورها وأظهرت
الحقنة معادن الرجال . . وحكم التاريخ حكمه على كل بما استحق .
وكان ذلك الدرس الخالد ، وبقيت مصر — فى جوهرها — وعلى
حقيقتها أمة ترفض الضيم ، وتستنكر المذلة وتأبى الهوان .

عمليات الميدان الشرقي

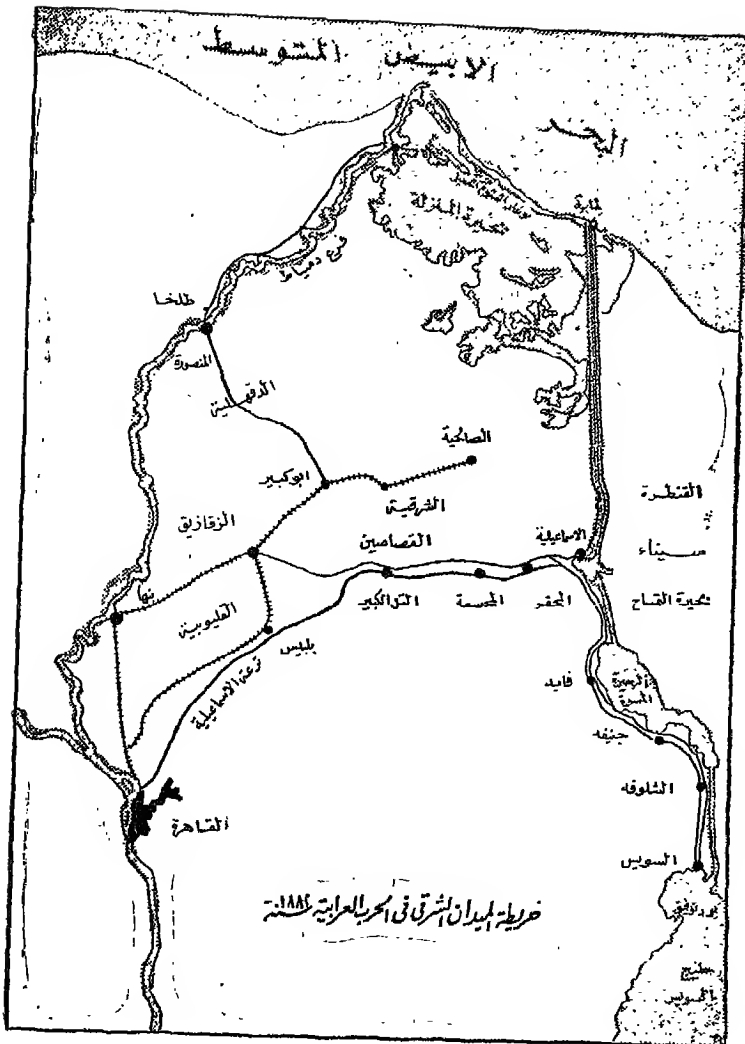
وجه الانجليز نشاطهم إلى هذا الميدان منذ منتصف شهر يوليو حيث اقتحمت بعض السفن البريطانية القناة واحتلت مدينة السويس في ٢ من أغسطس، وفي ١٩ من أغسطس تحرك الأسطول الانجليزي من الاسكندرية بقيادة الأميرال سيمور وكان عبارة عن ٨ مدرعات و ١٨ سفينة تقل الحملة بقيادة ولسلي فوصلت بور سعيد صباح ٢٠ من أغسطس .

عمليات ٢٠ من أغسطس :

- ١ - احتلت كتية من الأسطول مدينة بور سعيد دون مقاومة .
- ٢ - احتل الجيش الانجليزي مدينتي القنطرة والاسماعيلية .
- ٣ - احتل ءشاة الأسطول الشالوفة في شمال السويس .
- ٤ - منع الأسطول مرور أية باخرة تجارية في القناة (احتجت شركة القناة على خرق حرمة القناة) .

عمليات ٢١ من أغسطس :

- ١ - وصل الجنرال ولسلي إلى الاسماعيلية يصحبه الأميرال سيمور .
- ٢ - وصل المدد من الهند إلى السويس .



عمليات ٢٢ من أغسطس :

١ - وضع الانجليز أيديهم على سكة الاسماعيلية - السويس - الحديدية .

٢ - وضع الانجليز أيديهم على ترعة المياه العذبة بين المدينتين .

٣ - سمح الانجليز للسفن التجارية بالمرور في القناة .

وهكذا اتخذ الانجليز من القناة - وهم الذين كانوا يثيرون الدول من تهديد عرابي لسلامتها - قاعدة حرية سبيل الزحف على مصر إذ لولاها ما استطاعوا أن يصلوا من الاسكندرية إلى الاسماعيلية في ١٤ ساعة . . وما استطاعوا أن يشقوا الطريق إلى العاصمة بهذه السهولة ولو مدت القناة ما حدث هذا كله .

عمليات ٢٤ من أغسطس :

هاجم الانجليز نفيسة واستولوا عليها (وهي نقطة تفرع ترعة الاسماعيلية إلى بورسعيد والسويس) .

وقد سد العراييون ترعة الاسماعيلية عند « المحفر » لمنعوا ورود المياه إلى الاسماعيلية . . فهاجمهم ولسلى واحتلها بمجنوده .

عمليات ٢٥ من أغسطس :

١ - زحف الانجليز على « المسخوطة » ، واستولوا عليها بعد معركة عنيفة وكانت القوات المصرية بقيادة الفريق راشد حسي .

٢ - وقع (محمود فهمي) رئيس أركان حرب الجيش المصرى

أسيراً في يد دورية بريطانية على حين كان يعتلى إحدى القباب مرتدية ملابس الملكية ، فكان أسره أكبر ضربة أصابت القوات المصرية من الناحية المعنوية .

ويتهمه عرابي في مذكراته بأنه أراد تسليم نفسه للعدو كي يخفف عنه الحديو الجزاء وذلك عندما وصل إلى علمه توقع صدور منشور العصيان .

٣ - استولى الانجليز على المحسمة (على مسافة ٢٤ كم من التل الكبير) وقد غنم الانجليز ٧ مدافع كروب وكية كبيرة من البنادق وقطار ذخيرة .

عمليات ٢٦ من أغسطس :

استولى الجيش الانجليزي على القصاصين دون مقاومة تذكر (على مسافة ٢٥ كم من التل الكبير) .

عرابي في الميدان الشرقي :

رأى عرابي - نظراً لدقة الموقف - الانتقال إلى الميدان الشرقي (التل الكبير) حيث تشاور هو وأصحابه في الموقف فتقرر اتخاذ خطة الهجوم في الحال ، وكان قد وصل في هذا الوقت اللواء على فهمي يقود الآلاى الأول المشاة والأميرالاي أحمد عبد الغفار يقود الآلاى الفرسان ، كما وصلت أورطتان من العساكر السودانية وهما من حامية دمياط .

أما قوات الجيش الانجليزي فكانت موزعة على النحو الآتى :

الجنرال (لو) قائد الفرسان في المحسمة .

الجنرال (وبليس) في المسخوطة .

والجنرال (جراهام) في القصاصين.

معركة القصاصين الأولى :

في ٢٨ من أغسطس هاجم المصريون مواقع الانجليز في القصاصين بقيادة الفريق راشد حسنى هجوماً شديداً واستولوا على المواقع الأمامية للانجليز وأجلوا العدو منها إلا أن الانجليز عادوا فقاموا بهجوم مضاد بقيادة الجنرال (لو) فاستردوا مواقعهم بعد قتال شديد من الجانبين . . وخسر الانجليز في الموقعة ٨ قتلى و ٦١ جريحاً منهم عشرة ضباط . . وتعرف هذه الواقعة بمعركة القصاصين .

معركة القصاصين الأخرى :

توقف الانجليز وهم الذين كانوا يوالون الزحف . . وفي ٩ من سبتمبر عاود المصريون الهجوم بقيادة الفريق راشد حسنى ، يريدون استرداد القصاصين للمرة الثانية وكان مقرراً أن يباغت اللواء البارودى العدو عند الفجر من ناحية الصالحية . . وعند منتصف الليل بدأ راشد حسنى الهجوم ، إلا أن العدو لم يباغت فقد كان على علم بكل تفاصيل المعركة . . لقد سلمت خطة الجيش المصرى بأكملها إلى الانجليز قبل بدء المعركة بواسطة الأميرالاي الحائى على يوسف (الشهير بنحفس) .



الفريق راشد حسني (أبو شنب فضه)
بطل معركة القصاصين

اشتد القتال من الجانبين ، وكاد المصريون يوقعون الهزيمة بالجيش
الانجليزي بل كاد الدوق (أوف كنت) وكان مراقباً للحملة يقع أسيراً
وتلفنوا ينتظرون دخول البارودي في الميدان حتى يشيع الارتباك في
صفوف العدو إلا أنه لم يصل في الموعد المحدد حيث كان الانجليز قد رصدوا
له مدفيعتهم — إذ كانوا على علم بالخطة — فخل ذلك بينه وبين تحقيق
غرضه كما أضله الأعراب عن وجهته في الصحراء .

كل هذا والمصريون يحاربون بقوة وحماس ، وفي هذا الوقت العصيب
حدثت مفاجأة لم تكن في الحسبان . .

لقد أفرخت الحياة ، ونجحت الدمائس وأثمرت الرشوة والوعود في إغراء
بعض الرجال (بإذاعة منشور إعلان عصيان عرابي) بالآستانة في ٦ من
سبتمبر ، ولقد تلقف الانجليز هذا القرار وطبعوا منه مئات الألوف
في صحيفة (الجوائب) وعهد الخديو إلى سلطان (باشا) بتوزيع آلاف النسخ
منه على ضباط الجيش والعمد والأعيان والعربان .

كان لهذا المنشور أثر أشد خطورة من ، واجهة الجيش الانجليزي
ذاته . . حيث سقطت حجة عرابي في أنه اللدافع عن حقوق الخليفة ،
فضعفت الروح المعنوية بين رجال الجيش وفي نفوس بعض أفراد
الشعب .

وزاد الموقف حرجاً بمخرج البطل راشد حسنى من المعركة بعد إصابته
في قدمه مما كان له أسوأ الأثر في صفوف المصريين الذين حاولوا استرجاع

مواقعهم بقيادة على فهمى فلم يتمكنوا ، حيث خرج هو الآخر جريحاً
فى ساقه . وتعتبر موقعة القصاصين الثانية أعظم ما وصلت إليه جهود
المصريين فى مغالبة العدو .

بقى أن نقول : إنه كان على عرايى أن يشترك فى هذه المعركة ولو فى
مؤخرة الجيش فجوده فى التل الكبير لم يتح الاستفادة من استخدام
القوات المقاتلة فى تلك اللحظات الحاسمة .

معركة النل الكبير

ميدان المعركة :

كانت مواقع الجيش المصرى على هضبة ترتفع ثلاثين مترا من خط السكة الحديدية تمتد بأعذار خفيف نحو الصالحية والقصاصين ، والجهة الشمالية لهذه المنطقة أرض رملية مكشوفة ، أما الجنوبية فهى أرض زراعية تفتقرها الترع والقنوات وغير صالحة لسير حملات الجنود . . وأنشئت خطوط الدفاع لمسافة ستة كيلومترات من الجنوب إلى الشمال حيث تبدأ السكة الحديدية ، ونحصى هذه المواقع خنادق بعرض يتردد من مترين إلى ثلاثة أمتار وبعمق متر أو مترين ، وخلف الخطوط الأمامية خطوط أخرى تمتد إلى المعسكر الذى على السكة الحديدية والذى يعد عن معسكر العدو بالقصاصين بمسافة حوالى خمسة عشر كم .

عيوب المواقع :

- ١ — لم تكن هذه الخطوط كافية للدفاع نظراً لأنها أقيمت بسرعة كما أنها لم تكن قد تم إعدادها عند بدء المعركة .
- ٢ — لم يكن بها العدد الكافى من القوات لصد هجوم العدو .

القوات :

كانت نحو اثني عشر ألف جندي و ٦٥ مدفعا ، وإن كان قد عاونها بضعة آلاف أخرى من الأعراب والحفراء والجنود غير النظاميين الذين لم يسبق لبعضهم التدريب على إطلاق النار .

القيادة :

استدعى عرابي اللواء (على الروبي) قائد لواء مريوط ، وأسند إليه



قيادة المعركة ولم يصل الروبي إلى منطقة القتال إلا يوم ١١ من سبتمبر أى قبل المعركة بأربع وعشرين ساعة ، ولم تكن هذه بطبيعة الحال بالمدة الكافية لاكتشاف المواقع الصالحة للدفاع ، أو وضع الخطة الناجحة .. ولا سيما أنه لم يكن على قدر كاف من القدرة الحربية .

وقبل أن نبدأ في الحديث عن سير المعركة نرى أن هناك بعض التصرفات التي تؤخذ على عرابي ، وهي :

أولا : كان عليه أن يتولى قيادة المعركة حيث كان لديه الوقت الكافي

تتعرف مواقع القتال بالقياس إلى اللواء على الروبي .

ثانيا : كان من الواجب استدعاء حامية دمياط وكان جنودها من خيرة الجنود المدربين فقد بدأت الحرب وانتهت دون أن تشترك هذه الحامية في القتال .

العوامل المؤثرة في المعركة :

١ — كانت هزيمة الجيش المصرى فى موقعة القصاصين الأخيرة ضربة شديدة كشفت الموقف الحربى ودلت على ضعف الجهة المصرية أمام الهجوم الإنجليزى ، وخاصة أن قوات العرايين قد خسرت أبسل قوادها (راشد حسنى) (أبو شنب فضة) و (على فهمى الديب) فبدأ الاضطراب على قادة العرايين حتى بدأ اليأس يتسرب إلى قلوبهم .

٢ — بدأت المعركة وقد أحاطت بجيش مصر عوامل الخيانة والتعذر من كل جانب ، فالخديو يبارك هجوم الإنجليز بمنشور جاء فيه :

« ليكن معلوماً عند السلطات الملكية والعسكرية فى منطقة قناة السويس أن أميرال الأسطول الانجليزى وقائد الجيوش البريطانية العام إنما أتيا إلى مصر لإعادة الأمن والنظام إليها ومن ثم سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التى يريدان احتلالها ومن خالف أمرنا هذا ينزل به أشد العقاب » . .

والسلطان خليفة المسلمين لم تفرخ دسائسه إلا فى هذا الوقت العصيب ليخرج بمنشور يعلن فيه أن كل من يقف فى وجه الإنجليز يعتبر خارجا على الدين . .

كما تقشّت الخيانة في صفوف الجيش نتيجة ضعف الروح المعنوية وشراء
الذمم. وإغراء الذين يكفون عن المقاومة بالعمو بعد أن ظهرت بوادر
الغلبة للإنجليز. . كما كان البدو طابورا خامسا للعدو. . يرشدونه لمواقع
الجيش المصري .

تحضيرات الهجوم :

١ — اختار ولسلي الهجوم من جهة الشمال .. ولو أنه طريق أطول
من الطريق الجنوبي وفي أرض رملية مكشوفة فإنه يتفادى الترع
والقنوات التي تعترض تقدم القوات من الجهة الجنوبية التي لا تصلح
لسير الحملات .

٢ — كما أنه قرر الزحف في أثناء الليل كي يتقى أشعة الشمس الحارقة
حيث إن تقدم قواته كان عبر الصحراء .

٣ — ولكي يحقق المفاجأة قرر أن يكون الهجوم ليلا ، وأصدر
أوامره بإطفاء كل الأنوار إطفاء تاما في أثناء السير .

٤ — ساعد على تحقيق المفاجأة أن المصريين لم يقيموا الدوريات
أمام الاستحكامات ولذلك اختار الليل موعداً للقيام بهجومه .

٥ — استعان في أثناء سيره بالبدو الذين أرشدوه إلى المعسكر
المصري وإلى مواقع المصريين .

سير المعركة :

وفي منتصف الساعة الثانية بعد منتصف ليل يوم ١٢ من سبتمبر

بدأ ولسلى زحفه فى خمسة عشر ألف جندى وستين مدفعا (١١ر٠٠٠)
من المشاة و ٢٠٠٠ من المدفعية و ٢٠٠٠ من الفرسان يعاونهم بعض
قوات المهندسين وعمال الاشارة) .

وكان يتقدم قواته بعض ضباط الأسطول الذين نمرسوا على الاسترشاد
بالنجوم فى الناطق الصحراوية ، إلا أنهم لم يستطيعوا الاهتداء إلى مسالك
الصحراء التى تقود إلى المعسكر المصرى لولا بعض البدو من عربان الهنادى
ممن اتخذهم الإنجليز مرشدين جواسيس .

خيانة السوارى :

ظل الجيش الانجليزى يوالى زحفه مسافة خمسة عشر كم دون أن
يلقى أية مقاومة .

وقد كان فى المقدمة سلاح السوارى الذى استمال « سلطان باشا »
قائده الأميرالاي أحمد عبد الغفار تحت ضغط أسرته فى تلا ، فقد أرسل
الأميرالاي على يوسف الشهير بخنفس قائد السوارى فى المقدمة إلى
عربى — والجيش الانجليزى يتقدم — يخبره أن الإنجليز لن يتحركوا
فى ذلك اليوم . . فركن الجيش إلى الراحة فى الوقت الذى كان العدو
قد وصل فيه إلى القطاع الشرقى لمواقع الجيش المصرى والذى كان مكلفا
بحراسته الآلاى الثانى السوارى بقيادة القائمقام عبد الرحمن حسن فاتجه
بفرقة إلى الشمال لترك الجيش الانجليزى يمر فى أمان . . ويقال إن خيانة
هذا النفر لم تقف عند هذا الحد ، بل وضعت المصاييح للعدو على المسالك
ليسترشد بها وليخترقها فى يسر !



معركة التل الكبير « مباغتة الجنود المصريين »

مفاجأة العسكر المصرى :

والى الإنجليز الزحف حتى مطلع الفجر إلى أن صارت قواتهم على مسافة ٢٥٠ ياردة من التل الكبير ففاجئوا المصريين بالمهجوم حيث كان الجنود نائمين بعد أن ركنوا إلى الراحة ، ولم يستيقظوا إلا على إطلاق النار فى موقعهم عندما وجدوا العدو يحيط بالعسكر على شكل نصف دائرة . . ولم يلبث ولسلى أن أمر باقتحام الاستحكامات الأمامية فاستولى عليها الإنجليز ، وخسروا فى هذه العملية نحو مائتين من الجنود . . ثم تابعوا الهجوم على خط الاستحكامات الثانى واستولوا عليه أيضاً ، وقد تمكنت إحدى الكتائب من التوغل داخل المواقع ، وفتكت بنادقها بالمصريين فتكا ذريعا ، كما أحرق الجنرال « لو » بمسيرة المصريين بقصد الاستيلاء على محطة التل الكبير التى وقعت فى يديه ، وأحاط الإنجليز بالعسكر المصرى من كل جانب حتى استولى الذعر على الجنود فألقوا بالأسلحة ولاذوا بالفرار ..

أبطال :

ولم يخل الميدان وسط هذه الحنة من نفر من المصريين حفظوا شرف قومهم فقد ثبت للدفاع آلايان من السودانيين بقيادة الأمير الای محمد عید (بطل المهجور على قصر النيل) الذى ظل يقاتل قتالا شديداً حتى استشهد هو ومعظم جنوده

أما المدفعية فقد أصلت الإنجليز ناراً حامية بقيادة اليوزباشى حسن رضوان ، الذى ظل صامداً حتى حمل إلى ولسلى فسلم له سيفه احتراماً لبسالته . وكان جلال هذا العمل يحو من النفوس شيئاً مما تركته خيانة خنفس ومن هذا حدوه .

بقى أن نقول أن بعض المؤرخين من كتاب الاحتلال غاؤوا حين زعموا أن الانجليز فاجأوا عرابى وهو فى حلقة ذكر بين جنوده ! ولكن ما قصد تلاميذ دنلوب إلا أن تغفل الحياة فى هزيمة عرابى !

الهزيمة :

لم تدم المعركة أكثر من نصف ساعة لم يقاتل فيها سوى ٣٠٠٠ جندى وضابط استشهد أكثر من نصفهم حيث بلغت خسائر المصريين حوالى الألفين فى حين أن خسائر الانجليز تكاد تكون أقل من المائة منهم ، ضباط ، ٤٠٢ جريحاً ، وقد غنم الانجليز أسلحة وذخائر ومهمات الجيش المصرى أما عرابى فحين رأى الحياة تطبق عليه والجند وقد اتابهم النعر ركب

حصانه ومعه عبد الله نديم وأسرع بالعودة حتى أدركا قطاراً عند الزقازيق، فوصلا إلى القاهرة عصرًا .

أما عن القاهرة وعن القلق الذي ساد أنحاءها . فإنها كانت تعتقد حين وصل عرابي أنه قد وصل وهو يحمل رأس سيمور ولو علمت، الحقيقة لعرفت أن مصر قد ارتدت في تلك الساعة حلة أرجوانية من نسج الاستعمار وبذلك تمت المأساة ! ..



حسن رضوان
ردوا له سيقه

يوم الاحتلال

باتت القاهرة في ذلك اليوم في قلق عظيم .. فالعامة والعلماء يطوفون بالشوارع يصيحون بالدعاء والتكبير .. والناس جميعاً يروحون ويغدون في انتظار أخبار الموقعة الفاصلة .. وحكمदार المدينة ابراهيم بك فوزى لا يفتر لحظة عن الطواف في الميادين والأحياء لمنع أى هجوم للرعايا والدهاء على المتاجر والأوربيين .. والمجلس العالى الذى كان قائماً بإدارة الحكم في البلاد ظل مجتمعاً طيلة النهار دون أن يتلقى خبراً حتى ساوره القلق .. ولازم يعقوب سامى (باشا) وكيل وزارة الحرية مكتب التلغراف دون أن يكشف أحداً بآخر الأنباء إلى أن أخبر الحاضرين أن (عرابى) قادم على عجل إلى العاصمة .

وصل عرابى ظهر ١٤ من مبتمبر في قطار صادف عند الزقازيق ، منهوك القوى يصحبه اللواء على الروبى ، وجلس على مقعده وعلائم الاضطراب بادية عليه ، وظل صامتاً لا يتكلم .. فأيقن المجلس أنها الهزيمة لاحالة ..

وأخذ عرابى يشرح أسباب الهزيمة ثم أضاف أن في الإمكان درءها عن العاصمة .. وأن الأمل مازال قوياً .. فهناك حامية القاهرة في القلعة وحامية دمياط التى لم تشترك في القتال وقوات كفر الدوار ، فثار في

وجهه بعض الأعضاء قائلين : ألم تكف هزيمة التل الكبير لتضيف إليها
تدمير القاهرة التي لا تحتل مدافع الإنجليز ؟
وأخذ الأعضاء يتصايحون وتشاور المجلس : أيصير تسليم القاهرة
للإنجليز أم يصير الدفاع عنها .. ؟

واختلفت الآراء وتشعبت الأفكار .. وكاد الرأي بالتسليم يغلب
حيث دب اليأس في النفوس بعد هزيمة الميدان الشرقي ، لولا أن وقف
الأمير إبراهيم أحمد (باشا) ابن عم الحديو وكان نصيراً قويا للثورة فحث
الحاضرين على الاستمرار في المقاومة وأخذ يث روح الكفاح قائلاً :
إن وسائل الدفاع متوافرة والواجب هو الدفاع مادامت فينا بقية .

وعاد المجلس وأمن على كلام الأمير .. واستقر الرأي على إنشاء خط
دفاعي في ضواحي العاصمة وكان من الممكن الثبات لو أن النفوس ظلت
مؤهنة وبقيت السواعد قوية .. وكانت القيادة حازمة .. لقد أوقف من
قبل أهالي القاهرة وخدمهم بزعامة السيد عمر مكرم جحافل الفرنسيين
بقيادة بونابرت أعظم قادة التاريخ . مع أن أسلحتهم في الدفاع لم تكن
سوى البنادق والمراوات والتاريس على حين أن القوات الزاحفة في تلك
الحرب لم تكن سوى بضعة آلاف قليلة يمكن صدها .. وفي ذلك يقول
(يوفيس)

« ولم يكن الجنرال (لو) يزحف في طريق آتنة . إذ لم يكن معه سوى
عدة مئات من الجنود ، وكانت أمامه مدينة آهلة بالسكان تدافع عنها حامية
كبيرة ترابط في العباسية والقلعة .. وأمامه ذكريات الثورات الهائلة التي

صببت المتاعب والحسائر الكبيرة لنابليون أثناء الحملة الفرنسية .. ولكن
تردد الرؤساء العراقيين قد أخرجه من المأزق .



الجزال ولسلى
« لم يكن من القادة المشهود لهم
بالكفاية الحربية »

كما أن الجنرال ولسلى القائد
العام للحملة الانجليزية لم يكن
من القادة المشهود لهم بالكفاية
الحربية ، بل كان قليل الحنكة
والدراية .. فشل فشلا كبيرا في
حرب البوير .. فعين قائداً لهذه
الحملة ليعوض ما فاتته من نصر.

نهض عرابي إلى العباسية
ووجهه « المرعشلى باشا » كبير
المهندسين الاستحكامات ورضاباشا
قائد الحيلة .. وبعد تقدير الموقف

تقرر اتخاذ الخط الدفاعي أمام المطرية شرق عين شمس ..

وبعد معاينة الخط توجه الجميع إلى رئاسة الطوبجية حيث استعرض
عرابي الجنود فلم يجد سوى عدد ضئيل ، كما لم يجد سوى مائة من جنود
السوارى بقيادة الأميرالاي أحمد بك نير الذى قال لعرابي إنه على استعداد
أن يقف في وجه العدو ويقا تل برجاله المائة حتى يموت معهم .

لقد اختفى الضباط والجنود .. ونزلت حامية كفر الدوار بقواتها إلى

المدن والقرى دون أن تصل لها الأوامر بالتسريح .. وهنا أدرك عرابي أثر قرار السلطان بالعصيان ، وفعل المال بالنفوس .

وصور عرابي الموقف في هذه اللحظة فقال :

« فلما شاهدنا كل ذلك رأينا أن الأولى حقن الدماء ، وحفظ القاهرة من غوائل الخراب والدمار كما حصل في الاسكندرية مادامت المقاومة لم تجد نفعا ، وفضلنا تقديم أنفسنا فداء عن الأمة المصرية السيئة الحظ .. فرحنا إلى المجلس العالي ، وأخبرناه بما عن لنا ! »

. وبناء على ذلك قرر المجلس العالي إيفاد (بطرس غالى باشا) وكيل الحاقانية (ورءوف باشا) (وعلى الروبى باشا) إلى الخديو لاستعطافه بعد امتكئاب عرابي التماسا بالعفو حيث قبل عدم الاستمرار في المقاومة — قبل الخديو بشرط موافقة قائد الجيوش الانجليزية . وأمر على الفور باعتقال اللواء الروبى .

وبينما كان هذا يجرى .. كان الانجليز يحدون في أعقاب عرابي .. زاحفين على القاهرة في غير إبطاء .. فقد احتل الجيش الهندي الزقازيق دون مقاومة بقيادة الجنرال مكنوش بعد الاستيلاء على خمسة قطر مشحونة بالموءن والذخيرة كما وصل الجنرال (لو) بالخيلة الإنجليزية إلى بلبيس يوم الأربعاء ١٤ من سبتمبر حيث حجز البرقيات التي كان قد أرسلها عرابي من هناك بعد عودته إلى القاهرة يستنهض بها البلاد لمقاومة الزحف ..

ثم استأنف « لو » سيره قاصداً العاصمة بقوة لاتكاد تصل ألف جندي .. ولاتكاد تكفي المحافظة على الأمن بل لاتكفي لحراسة منشآت

هذه المدينة الكبيرة .. ولكن الروح التي لازمت القادة في معركة التل الكبير .. والخيانة التي فتت في عضد المحاربين . والضعف الذي انتاب الكثيرين — كل هذا جعل « لو » يستهين بمصر وبالصريين .. !

وجد الإنجليز باب العاصمة مفتوحاً ، فوصلوا العباسية في الساعة الرابعة من مساء الخميس ١٥ من سبتمبر ، وأرسل الجنرال « لو » إلى (رضا باشا) قائد الثكنات يطلب تجريد الجنود المصريين من أسلحتهم ، فاتصل هذا بعراقي الذي أمره بالكف عن المقاومة تقديرًا للظروف ، وعرج القائد الإنجليزي بمجنوده الحشماة على القلعة — وكان الخائن الأميرالاي على يوسف خنفس — لعنه الله — لم يكفه كل الحيلانات السابقة من تسليم العدو خطة القصاصين ، ومن تقديم رقباء المصريين إلى سيوف الإنجليز في معركة التل الكبير ، فأبى إلا أن يسبقهم إلى القلعة ليكون له شرف السبق في تسليم مفاتيحها لأسياده الإنجليز !

.. وفي مساء احتل العدو معسكر قصر النيل .

كان عرابي في هذا الوقت في بيت اللواء على فهمي الديب الذي كان قد جرح في معركة القصاصين مجتمعاً باللواء طلبة عصمت قائد حامية كفر الدوار وسامى البارودي رئيس الوزراء .. ثم أقبل عليهم مسيو نينيه السويسري صاحب كتاب (أحمد عرابي) فنصحهم بتسليم أنفسهم أسرى حرب للجيش البريطاني .. واستصوب عرابي رأيه خوفاً مما قد يحل به على يد توفيق .. أما البارودي فقد رفض هذا العرض قائلاً :

« إني لن أسلم نفسي بل إني ذاهب إلى منزلي .. فإن أرادوني
فليقبضوا علي حيث يجدونني .. »



.. وبينما عرابي بهم بالخروج
لتسليم نفسه وصلت برقية من اللواء
البارودي قائد حامية الصالحية يطلب
من عرابي الاستمرار في المقاومة
وإذا أعياء الموقف فليقم بإغراق
مديرية القليوبية والشرقية لتعطيل
زحف الأعداء .. ولكن (عرابي)
أمره بالتسليم .

محمود سامي البارودي
« لن أسلم نفسي »

ذهب عرابي إلى بيته يصحبه
طلبة عصمت ولبس رداءه الرسمي

واتشح بسيفه .. وتوجه الاثنان في عربة إلى ثكنات العباسية عصر يوم الجمعة
حيث جرى بهما إلى الجنرال لو فسلما سيفهما إليه . فبادرها بقوله :
« هل تقبلان أن تكونا أسرى حرب لجلالة الملكة ؟ »
.. فأجاب عرابي :

« نحن محاربنا إلا للدافع عن شرف بلادنا .. وإن كنا قد كفنا
عن القتال فلثقتنا في شرف الأمة الإنجليزية . »
.. وعلى هذا سلم عرابي سيفه للجنرال « لو » الذي أمر باعتقاله
واعتقال طلبة عصمت وإيداعهما إحدى الثكنات .

.. وبهذا سلم الجميع عدا (عبد العال حلمي) أحد زعماء الثورة الذي اعتصم في حصن دمياط وأراد أن يقوم بحركة عداية لولا أن نصحه بعض الضباط فسلم .

.. وفي الوقت الذي نزل فيه عرابي سجيناً كان الجنرال ولسلي قائد الحملة الانجليزية في طريقه إلى قصر عابدين ومعه ساطان « باشا » نائباً عن الحديو ، وعندما رأى الأهالي الإنجليز بدخولون القصر بقبعاتهم البيضاء وشواربهم الصفراء أثار هذا شعورهم فخرج سكان الأحياء الوطنية : الحسينية ، وباب الشعرية ، والسيدة زينب بالعصى والمراوات يقصدون مقاومة الغزاة ، ولكن محافظ القاهرة رأى في هذا عملاً لا طائل تحته . فردهم حتى لا يحدث احتكاك بين الإنجليز والأهلين .

وبهذا أسدل الستار على قصة كفاح هذه الثورة .. ولبست مصر السواد حداداً على الحرية التي فقدتها أبناءها .. وامتد الخنجر ليطعن مصر في الصميم .

موكب الحراب

سقطت العاصمة وخذت الثورة ، وخلت المدينة من جند مصر . . . قد ألغى توفيق الجيش بجرة قلم . . . وعاد الفلاحون الذين قدموا المناصرة الثورة إلى قراهم ، وقلوبهم تنزى أسي وألما . . . وانتظر كل حر شريف ساعة الانتقام . . . ولم يبق ركن من البلاد إلا وقد خيم عليه ظلام قائم رهيب .

وهناك في الإسكندرية خرج توفيق من حماية الأسطول . . . ولم يحوئ أن يدخل العاصمة حتى تم تسليم العقابل . . . وحدد يوم ٢٦ من سبتمبر موعدا لعودته إلى القاهرة التي ناصرت (عراي) . . . ولم يطمئن الحديو أن يعود سالما إلى قصره إلا بعد أن أصبحت المدينة تعج بالخراب الإنجليزية . لم ير المواطنون على جانبي الشوارع في ذلك اليوم جنودهم المصريين والسودانيين ، وإنما رأوا والاثمزاز يذهل نفوسهم والأسى يعتصر قلوبهم جنودا حمر الوجوه قبعات بيضاء عالية تكاد تحجب أسلحتهم المشرعة عن العيون !

وزينت المحطة بالأعلام ، وبدأ كل شيء في هذا اليوم وقد تجلج بالسواد . وعلقت بالقهر الرايات في الشرفات والمنازل ، وإن كانت الأبصار قد ارتدت خاسئة عندما رأت بين الهلال والنجوم رايات حمراء هي رمز جيش الاحتلال . وبين أفاريز المحطة ودهاليزها تجمع الخونة الذين تسابقوا إلى بيع

الوطن وظهرت وجوه خرجت من الجحور . . كانت قد اختبأت قبيل اشتعال الثورة وعند إعلان الكفاح . . أرسل توفيق إلى معظمهم في مصايفهم في أوربا ، يستدعيهم على عجل ، عندما دنس الغزاة أرض الوطن فجمع الاحتلال شتاتهم وألف الدل بين قلوبهم !

وصل القطار الذى استقله الخديو من الإسكندرية في منتصف الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ، وبصحبه القنصل البريطانى المستر «مالت» ورجال الأسطول ، ونفر من الحاشية الخديوية ، وما إن لمست قدم توفيق إفريز العاصمة حتى تقدم رياض — وكان توفيق قد أسند إليه وزارة الداخلية هاتفا بأعلى صوته في موجة من الفرح والسرور : « يعيش الخديو مؤيدا بالنصر والإجلال ! » وكأنه كان يعلن الثمالة في الثوار المهزومين . . . ثم استقل الخديو وعلى فمه ابتسامة حائرة مركبة الى أحاطت بها كوكبة من الفرسان الإنجليز على صهوات جيادهم ، تتبعها عربات النظار تجر أذيال الدل والعار ، وتحرك الموكب يتهدى بين صفين من حراب الإنجليز حتى ظهرت عربة الخديو الذهبية فها هو ذا توفيق وبجانبه دوق كنت نجل ملكة الإنجليز ، وكان ضمن ضباط الحملة وجلس أمامهما الجنرال ولسلى قائد جيش الاحتلال والأيرال ميعور قائد الأساطيل . . كما لمح الناس في المؤخرة عربة تجاور فيها شريف ورياض ، كان الأول يبكي ، وكان الآخر يبتسم !

واستولى على جموع المشاهدين صمت كصمت القبور قطعه عزف الموسيقى بالنشيد الإنجليزى عندما وصل الموكب إلى ميدان عابدين . . فكان هذا

بمثابة إعلان للناس عن التغيير الجديد الذى طرأ على البلاد . فأطرق
الناس حزنا وخزيا وأحس كل مصرى بالأسى والألم الدفين .

فماذا بعد تدنيس أرض الوطن بأقدام المحتلين . . ؟

وأى مروق بعد مباركة حاكم البلاد لأعداء البلاد ؟

ولكن كل ما كان يفكر فيه الحاكم ليس دفع التل أو طرد المحتل إنما
كل همهم فى كيف يظفر برأس عرابى ، وكل جريرة الرجل أنه طالب بحقوق
بلاده وحرية وطنه .

لم يكتف رياض بالنماتة فى حق مواطنيه بل أقام فى المساء مأدبة عشاء
فاخرة تكريما لقائد الجيش الإنجليزى وضباطه . . وبعد العشاء وقف
يشرب فى غير حياء — نخب ملكة الإنجليز والجيش البريطانى . . ووقف
الجنرال ولسلى يشرب نخب الخديو ورياض !

وتسابق الخونة فى إرضاء السيد الجديد ، ولم يكن هو « توفيقا »
الذى لم يعد له من السيادة سوى مظهرها الكاذب :

موسيقى تصدح أمام قصره . . وحرس يحيط به . وألقاب زائفة
تضاف إلى اسمه ، وأوسمة تزين صدره . . أما السيادة فللإنجليز . . يدلك
على ذلك ماجاء بمذكرة اللورد « جرانفيل » وزير الخارجية إلى معتمد
إنجلترا الجديد السير « افلن بارنج » :

« يجب عند البحث فى المسائل المهمة الخاصة بسلامة مصر وإدارتها أن
تتبع نصائح حكومة جلالة الملكة ما دام « الاحتلال المؤقت » مستمرا . .



رياض باشا
شرب نخب الاحتلال

وعلى الوزراء والمديرين تنفيذ هذه النصائح .. وإلا أقبلوهم من وظائفهم !
وهنا بدأ الأذنان والأذيال والمرزقة يولون وجوههم قبل من أصبح له
السلطان ققاد سلطان (باشا) ومعه أحمد السيوفى مجموعة من المرتشين
والخونة والمولوثين والمارقين إلى رياض يبلغه أن هذه الوفود تريد أن تقدم
هدايا فاخرة إلى قواد جيش الاحتلال شكراً لهم على إقناذ البلاد من غوائل
الفتنة ، وكان نصيب ولسلى بطل مذبحه التل الكبير سيفاً من الذهب
الخالص . . وسيمور مخرب الاسكندرية طنبجة من الماس . . ورد الانجليز
على الفور الجليل بالإناعام على منسلطان بوساى سان ميشيل وسان جورج
مكافأة له على ما بذله فى خدمة الجيش البريطانى !

وفى اليوم التالى جارى توفيق أسياده الانجليز فأنعم على سلطان بالوسام
المجيدى وعشرة آلاف جنيه ذهباً لا زيف فيها جزاء له على بث الحيانة
فى صفوف المصريين !

وكان هذه المكافآت السخية كانت حافزاً لكى يجدد سلطان نشاطه ،
فأمر بإلقاء القبض على من شاء . .

وفعرت السجون أفواها لزعماء الثورة وأنصار الحرية ، وضمت
جدرانها حسن الشريعى (باشا) وزير الأوقاف ، وعبد الله فكرى (باشا)
وزير المعارف لاستنكارهما انضمام توفيق إلى الانجليز ، وشيخ الإسلام
الشيخ الامباني لاعلانه مروق الحديو من المدين ، وصفرة العلماء وعلى
رأسهم الامام محمد عبده والشيخ العدوى والضباط فوق رتبة البكباشى ..
حتى بلغ المقبوض عليهم أكثر من تسعة وعشرين ألفاً ، وخرج ضعاف

النفوس كالخنافس يسعون في الظلام بالوقعة والوشاية وأحس كل المصريين بالسلطات تبطش بهم فلجأ الناس إلى التذلل والنفاق ! وانكش السواد ولم يعد أحد يرضى إلا أن يعيش بعيداً عن هذا المحيط المسموم الذى توارت فيه العزة القومية . . وهوت فيه الأخلاق إلى الحضيض . .

ولم تكف يد البطش عن التنكيل بالأحرار داخل الديار ، بل تعدت الحدود تحاول القبض على كل من لاذ بالفرار خارجها خشية الاضطهاد والتعذيب ، حتى تمكنت من وضع يدها على اثنين من كبار الثائرين هما السيد حسن موسى العقاد والقائم مقام سليمان سامى ، وكانا قد تمكنا من الهرب على إحدى السفن إلى كريت ولكن الخديو أرسل إلى الحكومة التركية يطلب تسليمهما فأجابته إلى مطلبه . . وكان الأول سر تجار القاهرة ، والآخر أحد قادة الوحدات فى الدفاع عن الاسكندرية الذى أتهم بجرقتها وقد حوكم وتقرر إعدامه .

. . ولم يتمكن من الاختفاء سوى السيد « عبد الله نديم » خطيب الثورة العرابية ، فترة طويلة إلى أن تم القبض عليه فى إحدى قرى مركز الصف .

وكما أن الاضطهاد والاعتقال والتشريد كان نصيب الأحرار ظهر الجزء بعد ذلك فى المناصب والرتب بصورة واسعة للخونة والمارقين والجبناء كتعيين الشيخ المهدي شيخاً للأزهر بعد إقالة الشيخ الامباي الذى أثبت خيانة الخديو وإعادة عمر لطفى وزيراً للحربية وعلى مبارك

وزيراً للمعارف ونوبار نصير التدخل الأجنبي وزيراً للمالية ، بل أضفى
حبك الخيانة التزكية المثلى عند الحاكم .

كان توفيق يتطلع إلى اليوم الذى يساق فيه عرابى وأصحابه إلى
المشقة .. وكان من المقرر إعدام عرابى ولكن خشى الانجليز إثارة
النفوس فأثروا سجنه ونفيه حتى يخففوا من حدة الشعور الوطنى ضدهم ،
ويحولوا القسط الأكبر من المقت والكره والازدراء إلى الخديو .
واتفق توفيق مع شركائه الجدد على طريقة محاكمة زعماء الثورة فأبرق
اللورد جرا نيل متوعداً الحكومة الخديوية بالبلاغ التالى :

« إنه ليس هذا أوان ظهور الحكومة المصرية بمظهر المانعة والمعارضة
وإن استمرارها على هذا الاجراء يعرضها للفشل والخطر ، ولا تكون
هذه النتيجة مقتصرة على الوزارة وحدها بل تتناول مركز الخديو نفسه ،
وإذا لم تقبل الحكومة المصرية وجهة نظر الحكومة الانجليزية فلا يسع
هذه إلا أن تتحمل تبعه ما يترتب على رفضها من النتائج السيئة بعد انقضاء
ثمانية أيام من تبليغ هذا الانذار . . »

.. وهنا انكشف الستار وزالت العشاوة عن عيني توفيق . .
وسقط ادعاؤه بأن التدخل الأجنبي موقوف بقمع الثورة ، بل أدرك أن
العزل قد يكون جزاءه أيضاً إذ هو جرؤ على معارضة أمياده .

فهذا هو ثمن الخيانة ! بل هذا هو أسلوب الاستعمار لايعنيه إرضاء
العميل أو إذلاله بقدر مايعنيه تخدير الشعب وتهدة الخواطر !

هذه الثورة في الميزان

تضاربت آراء المعاصرين ، واختلفت نظرة الكتاب في الثورة التي قادها أحمد عرابي بحجة أنها انتهت بالاحتلال . . وإن كان أحد لا يجرؤ — حتى الخصوم — أن ينال من وطنية هذا الزعيم الفلاح يرغم قسوة الأقلام التي سخرت منه وجارت عليه فأطلقت الكثير من السحب حتى حشيت الحقائق عن العيون .

فهل نسي أصحابنا الذين يرمون هذه الثورة بأنها قادتنا إلى الاحتلال — هل نسوا أننا كنا قبل نشوبها محتلين أيضاً من الأتراك ؟ وأنها لم تنحدر بنا من الاستقلال إلى احتلال ، بل انتقلت بنا من احتلال إلى احتلال . . ففرس فينا هذا التغير أو هذا الانتقال شيئاً لم نكن لنشعر به من قبل ، ألا وهو الكره والقت لكل غاصب أو محتل — مهما كان — فهذا الشعور لم نكن نحس به من قبل !

أدركنا خلال هذه — الثورة — أن الحكم التركي احتلال أيضاً وأن الاحتلال واحد مهما تعددت صوره واختلفت أشكاله . . وبهذا حطمت الثورة العرابية الفكرة التي استولت على عقولنا والتي كانت قد رسبت في نفوسنا من أن الوالي صاحب الحق في أن يحكمنا أو أن يملكنا حتى أضحت نظرنا إلى السلطان عبد الحميد مثل نظرنا إلى الملكة اليصابات إذ وضع

لنا أنه ليس هناك — بعد موقف الخليفة منا — كبير فرق بين حكومة جلالة الملكة في لندن وحكومة الخليفة في الآستانة . فكلماتها طامعة في بلادنا متطلعة إلى إذلالتنا : هذه حكمتنا بالمدفع ، وتلك ضيعتنا باسم الدين ! وهل لولم يشر عرابي : أفسكانت مصر تستطيع تجنب مؤامرة الاحتلال أم أن هذا الاحتلال كان واقعاً حتماً ؟

أغلب الظن أن المؤامرة كانت تخطو سريعاً نحو خطتها المرسومة بعد إنشاء قناة السويس . . حتى لولم يحارب عرابي لأنه لم يسع إلى هذه الحرب بل اضطر إليها اضطراراً وهي لم تكن حرباً بالمعنى الصحيح بل كانت ثورة وجهاداً ، ثورة سلمية حرص فيها عرابي أن تظهر عادلة سلمية تؤمن بالشرف السياسي والرأى العالمى .

بل بدا عرابي في كل مواقفه الحرية محارباً مسالماً لإيمانه بأن الحق إذا آتى بالمسألة أفضل مما لو آتى بالسيف .

ففي الوقت الذي كانت المؤامرة الاستعمارية تسعى وتعدو لاستئثار عرابي حتى يخرج عن أسلوبه السلمي لا يجد سيعور من سبب يتعلل به لضرب المدينة الوادعة بالأساطيل سوى مشاهدة بعض الترميمات في إحدى القلاع . . وما في هذا من خطورة على الأسطول الرائنض في البحر وطلب انتزاع المدافع فوراً من الحصون .

ولا يدع له عرابي الفرصة لتنفيذ المؤامرة فيبعث له قائد البحرية المصرية ليؤكد له النوايا المصرية الحسنة وعدم صحة الأخبار التي تشيع بأن تحصين الطوابي لإغراق الأسطول .

فتريد التهدة والتأكيدات المصرية السلمية من غضب ميمور .. فيسرع
في توجيه الإنذار بضرب المدينة الوادعة مع إشراق الشمس في الصباح ..
فماذا كان رد غرابي على هذا العمل الفاضح الشائن .. والتعنت
الذي ليس له مثيل ؟ .

جمع قناصل الدول يشهدهم على حسن نية مصر .. وعرض على الحديو
والحكومة مجتمعين موقفه من الإنذار .. فاجتمعت الكلمة على الرد
على الإنذار بما يحفظ للأمة كرامتها وعزتها مع إظهار النوايا السلمية في
بيان صدر غاية في الحكمة والوطنية :

« لم تفعل مصر شيئا يقضى بإرسال هذه الأساطيل المتجمعة .. ونحن
هنا في بيتنا ووطننا .

— ومصر الحريصة على حقوقها وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم
أى مدفع ولا أية طاية ، دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح .

فهى لذلك تحتج على بلاغكم وتحملكم مسئولية هجوم الأساطيل
وإطلاق المدافع على بلد آمن ينعم بالسلام .

وأیضا تقرر مصر من باب المسالة قبول إنزال ثلاثة مدافع يختارها
الأميرال .

ولن تجاوب المدفعية المصرية على مدافع الأسطول إلا بعد إطلاق
الطلقة العاشرة » .

وهنا ينتهى البيان .

ومع هذا لم يخجل سيمور أو ساسته الاستعماريون من استباحة حرمة
الشعوب على إشراقة الصباح !

فهل بعد كل هذه المسامات دليل على أن الرجل كان يريد تجنب هذا
التدخل كما كان لا يريد الحرب التي لم تكن متعادلة القوى . . والتي
تكاثرت فيها خصومه وأعداؤه . . والتي تألب فيها كل مارق ومستضعف
على كل حر شريف !

ولماذا نحمل عرايا وحده هذه المسؤولية . . . مع أن الحديو نفسه
وجميع الوزراء اتفقوا على هذا الرأي . . واشتركوا في توقيع البيان !

والغريب بعد هذا أن يأتي بعد ذلك من يقول : إنه ما كان لعراقي
أن يدخل الحرب . . وكان عليه أن يأخذ الموقف بالهدوء والحكمة ؟
. . فأى منطق هذا ؟

أليس قبول الدل هو الاحتلال بعينه وهل الحكمة في أن نرى الدل
فتقبله ، ونرضاه ؟ وهل أضحي الاستقلال استضافة الأباطيل
ونزع السلاح ؟

ما أغنانا عن تسخيف حكمة هؤلاء من قول النائب الانجليزى
ريتشارد في مجلس العموم مستذكرا موقف حكومته :

« أرى رجلا يحوم حول داري وعلامات العدوان بادية على وجهه . .
وحين أعمد إلى إغلاق نوافذى وأبوابى . . يشور غضبا ويزعم أننى
أهينه وأهدده ! »

حقاً بما يؤسف له . أن هناك من الأعداء من هم أرحم بهذا البلد من بعض أبنائه !

وباليت حكمة هؤلاء وقفت عند هذا الحد بل إنها تحمل (عرابي) عدم رأب الصدع بينه وبين الخديو .. وعدم العمل على تلافي هذا الخلاف ولكن ما ذنب عرابي في هذا كله ؟

وماذا يكون التصرف مع حاكم ينزل في ضيافة الأسطول الذي انتهك حرمة وطنه .. ؟

وماذا يكون التصرف مع حاكم يستعدى العاصب على وطنه .. ويعطيه الصك في تأديب أبنائه ؟

بل ماذا يكون التصرف مع حاكم يستنكر وقفة جيش مصر ضد الجيش الانجليزي فيدفع رئيس وزرائه (راغب باشا) ليستكتبه سيمور خطاباً غاية في المذلة والعار جاء فيه كل ما يندى ألبين ؟

« لى الشرف الرفيع أن أعلن لحضرتكم أن (عرابي) يشتغل الآن بإعداد وسائل الدفاع ، وذلك مخالفة لأوامر جناب الخديو . فكونوا إذن على علم بأن الخديو عزم على عزله .

فهو لذلك المسئول عما يحدث ، فأرجوكم أن تبلغوا حكومة جلالة الملكة هذه الرسالة » !

إذن فلم يكن هناك من تجن حين يطلب عرابي من الخديو ووزرائه أن يتركوا أماكهم في أيدي الأعداء ليكونوا في كفر الدوار للمشاورة في الموقف ولصد الغزاة !

ولم يخطئ عرابي حين عمل المراطنون ممثلين في أعيان البلاد وعلمائها وقادتها في تعطيل سلطة الخديو .

ولم يرتكب عرابي إنما حين أجاج نار الثورة ضد الخديو ، وحين اتهمه بالروق والخيانة عند ما بارك الحملة الإنجليزية بمنشوره الذي جاء فيه بالنص :

« ليكن معلوما عند السلطات الملكية والعسكرية أن أميرال الأسطول الإنجليزي وقائد الجيوش البريطانية العام إنما أتيا إلى مصر لإعادة الأمن والنظام إليها .. ومن ثم سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التي يريان في احتلالها ما يساعد على قمع العصيان ، ومن خالف أمرنا هذا ينزل به أشد العقاب » .

.. حقاً إنني لم أجد ما أرد به على هؤلاء الذين يتمسكون بأطراف الحكمة عند الحكم على عرابي من قول نابليون :

« لكي نسوس المصريين يجب أن يكون هناك وسطاء بيتنا وبينهم نقيمهم رؤساء عليهم . وإلا أقاموا رؤساءهم فيما بينهم » .

ولقد أخذ الإنجليز بهذه النصيحة فاتخذوا من الخديو وسيطاً لتنفيذ سياستهم ، ومن هنا عادی الحركة الدستورية في البلاد ، والنهضة الفكرية فيها وجارى رغبات الأجانب حتى اتخذت منه الدولتان تكأة للحاربة العراقيين .

فمذكرة ٨ من يناير ، وحضور الأساطيل ، وقصة الاحتلال نفسها كانت كلها تمل كل مرة بدعوى المحافظة على حقوق الخديو وحماية

العرش . ولقد زالت والحمد لله هذه الحجة المصطنعة ، ووقى الله البلاد تدخل الاستعمار تحت هذا الستار ، ولم تعد البلاد إلا معسكراً واحداً عند مجابهة الغاصب الطامع ، ولعل في حرب السويس إبان العدوان الثلاثي أبلغ دليل على ما نقول . .

وإلى هنا نقف بجانب عراقي من خصومه الذين أرادوا أن ينالوا من مواقفه كي يسدلوا الستار على موقف المعسكر الآخر ، معسكر الخديو ومن سار في ركبه وركب الاستعمار .

ولكن المؤرخ الصادق عليه أيضاً أن يبرز نقط الضعف في هذه الثورة ، حتى نخرج بالدرس المستفاد — فما لاشك فيه أن هذه الثورة كان يقصها ثبات القادة وصلابة الزعماء . .

فالقائد كما نعلم روح الجيش ، والزعيم عنوان الشعب ، والزعامة تطبع الأمة بطابعها ، والقيادة تشرب الجنود بروحها ، ومواقف البطولة تثبت في الأمة روح التضحية ، ومواقف التسليم تقضى على روح المقاومة ، ولا شك أن ضعف المقاومة التي صادقتها الحملة الإنجليزية في الحرب العراقية يرجع بعضه إلى ضعف زعماء الثورة في أوقات الشدة إلى جانب عوامل الخيانة والعدو التي ساندت جيوش الاحتلال ، فقد استسلم معظمهم مع أن سبيل الكفاح كانت مفتوحة أمامهم . فاللواء محمود فهمي رئيس أركان حرب الجيش استسلم للعدو بمجرد أنه أشيع صدور قرار العصيان ، أو توقع صدوره ، وعراقي زعيم الثورة تقدم إلى حيث يسلم نفسه لعدوه . .

إن حروب الثورات لابد أن تبرز فيها التضحية حتى ولو كان مآلها إلى الهزيمة . . فالهزيمة مع الشرف صفقة نثار ، في كفاح الأمة في سبيل حريتها ، والبسالة والتضحية هما الإطار الذي يزين هذا السجل الخالد . ولو أن (عرابي) قاتل حتى استشهد في التل الكبير لكان لهذه المعركة شأن آخر غير هذا الذي صارت إليه .

أما الخطأ الذي وقع فيه عرابي ، والذي كان سبباً كبيراً في الهزيمة فهو عدم موافقته على ردم القناة ، فلوردمت القناة ما استطاعت الحملة الانجليزية أن تستولى على الاسماعيلية بالسرعة التي تمت بها ، لتتخذ منها قاعدة للزحف ، وما أمكن القوات القادمة من الهند أن تتصل بالقوات المتجمعة في الاسكندرية ، وما تمكن الانجليز من اختراق الجهة الشرقية يمثل هذه السهولة . . بل كانت ستضطر إلى عبور الصحراء حيث لا زاد ولا كلاً ولا ماء ، أو العبور خلال الدلتا حيث الترع والجسور والعقبات . . وكان موعد زحف الحملة في شهرى أغسطس وسبتمبر وهما في موسم الفيضان . وكان إحجام عرابي عن ردم القناة العامل الأكبر في الهزيمة . .

حقيقة إن هذا الاحجام جاء لا عن جهل بل عن خطأ في تقدير الموقف فنشأ عن إيمان عرابي بالشرف السياسى والرأى العام العالمى !

ولكن كانت أمام عرابي قبل الزحف على القناة الشواهد الثابتة على أن هذا الرأى العالمى يزيد القوى قوة ويسلب الضعيف ما يملك . . وأن خصومه الانجليز وضعوا سياسة الأمر الواقع نصب أعينهم ، من

ابتداء المؤامرة حتى نهايتها . . فلم يابهوا بتلك الكلمة البراقة التي تسمى « النرف السياسي » واتهكوا حرية مصر باحضار الأساطيل ثم بضرب الاسكندرية ثم باقتحام القناة . . ودلوا على أن النرف السياسي ليس إلا سرا با خادعا وتمويهها وبهتانها . .

فماذا فعل الرأي العالمي عندما ضربت الاسكندرية بقنابل الأسطول في رابعة النهار ، ومؤتمر الدول منعقد بالآستانة ؟
إنه لم يفعل شيئاً !

ولم يفعل الرأي العام شيئاً عندما اقتحم الأسطول القناة !
كما يجب علينا ألا نقول -- بجانب هذه الحقائق العامة -- الحقائق العسكرية التي أخذت على عرابي . .

فإنه ظل جامداً في التل الكبير ، ولم يشترك بقواته لمقاومة القوة التي كانت تحارب في القصاصين ، والتي استطاعت أن تشعر بصلاية المقاومة المصرية أمام الجيوش الزاحفة

كما لم يكن للحركة العراقية قلم مخبرات يستطلع أخبار الدول وأخبار العدو بل كان يعتمد على أفراد لا أمانة لهم ، وعلى نفر من الأعراب الذين باعوا الوطن بذهابهم معدودات .

أضف إلى هذا أن معظم القوات كانت غير مدربة على أساليب القتال بجهل روح الضبط والربط . . وكان الرذيف والتطوعون لا يعرفون استخدام الأسلحة الاستخدام الصحيح ، ولو كان هناك تدريب لقوات الاحتياط

أو كان ثمة حرس وطني منظم ، يدمر طرق مواصلات العدو ، ويزعج تجمعاته ويقطع الترع والجسور لاستفاد الجيش استفادة كبيرة . . وما سرحت نفسها قوات 'كفر الدوار دون أن تصدر لها الأوامر بالانقضاء عند انتقال القتال إلى ميدان التل الكبير .

ولا نستطيع أن نحمل (عراقي) وحده كل ذلك لأن حكام هذا البلد وعلى رأسهم الجالس على العرش كانوا ضالعين في الحيانة مع جيوش الاحتلال كما أنه لم تدع الفرصة لعراقي لأن ينظم جيشه أو يدربه على أساليب القتال إذ أن المؤامرة خطت سريعا ، وتقدت بسرعة مذهلة كي تقطع الطريق على هذا البلد حتى لا يتقدم . . وعلى هذا الجيش حتى لا يقوى . .

ومن هنا رأينا أن نعرض في هذه الحرب للنواحي والأسباب العامة أكثر مما بحثنا وفحصنا في الأسباب العسكرية — ذلك لأن الحركة العراقية كانت ثورة أكثر منها حربا

ثورة حمل لواءها هذا الجندي الفلاح . . الذي تنحى له الهامات احتراماً لجهاده . . ووطنيته وإخلاصه . .

فلا أحد ينسكرك قيمة هذه الصرخة التي أطلقها في وجه الاستبداد :
« لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا ترائنا ولا عقارا . . فوالله الذي لا إله إلا هو : لن نكون عبيدا بعد اليوم » .

بيان المراجع

المراجع الأجنبية :

- 1— Modern Egypt Cromer .
- 2— Secret History of the British Occupation of Egypt :
Blunt
- 3— How We Defended Arabi
- 4— The Transit of Egypt P. Elgood
- 5— The Ruin of Egypt .
- 6— Blue Book Egypt .

المراجع العربية :

- ١ — تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده
تأليف المسيو تيدور رودشتين وتعريب
الأستاذ علي أحمد شكرى .
- ٢ — المسألة المصرية
المسيو فرنسيه -- تعريب الأستاذ
عبد القادر حمزة .

المراجع العربية :

- ١ - مذكرات عمرباني عدد دار الهلال
- ٢ تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده للسيد محمد رشيد رضا
- ٣ يوم ١١ من يوليو سنة ١٨٨٢ للآن عمر طوسون
- ٤ أحمد عمرباني للأستاذ عبدالرحمن الرافي
- ٥ أحمد عمرباني الزعيم المفتري عليه للأستاذ محمود الحنيف
- ٦ - مطالعات مختلفة .

هيئة قناة السويس

حركة الناقلات :

سجلت الناقلات العابرة خلال أغسطس الحالى (١٩٦٢) زيادة عددية قدرها ٦٦ ناقلة أى بنسبة ٨,٦٪ مقارنة بتلك العابرة فى أغسطس الماضى اذ بلغ عدد ما عبر منها خلال شهر أغسطس سنة ١٩٦٢ (٨٣٣) ناقلة مقابل ٧٦٧ ناقلة فى أغسطس من العام الماضى .

وطبقا لاتجاهى العبور فقد زاد عدد الناقلات العابرة من الشمال بمقدار ٣٦ ناقلة (٤١١ ناقلة مقابل ٣٧٥ ناقلة) ويرجع هذا الى الناقلات الفارغة التى زادت عدديا بمقدار ٣٧ ناقلة (٣٨٢ مقابل ٣٤٥) بينما نقصت الناقلات المحملة بمقدار ناقلة واحدة (٢٩ مقابل ٣٠) .

اما الناقلات العابرة من الجنوب فقد زادت بمقدار ٣٠ ناقلة ٤٢٢ مقابل ٣٩٢ ناقلة) وقد حققت تلك الزيادة الناقلات المحملة (٤١٢ مقابل ٣٨٢) بينما لم يحدث أى تغيير فى الناقلات الفارغة (١٠ ناقلات فى كلا الشهرين) .

وزادت الحمولة الصافية للناقلات العابرة خلال الشهر الحالى مقارنة بما عبر خلال أغسطس من العام الماضى ١.٦٣.٠٠٠ طن أى بنسبة ٩,٦٪ (١٢٦٧٣.٠٠٠ طن مقابل ١١٦١.٠٠٠ طن) وتمثل الحمولة الصافية للناقلات نسبة قدرها ٧٤٪ من مجموع الحمولة الصافية للسفن العابرة خلال أغسطس ١٩٦٢ وكانت هذه النسبة ٧٣٪ فى أغسطس ١٩٦١ .

وبلغ متوسط كميات المواد البترولية المنقولة على كل ناقلة محملة ٢٧١٢٧ طنا فى أغسطس مقابل ٢٦٤٤٠ طنا فى أغسطس ١٩٦١ .

كما بلغ متوسط الحمولة الصافية ١٥٢١٤ طنا فى أغسطس ١٩٦٢ مقابل ١٥١٢٧ طنا فى أغسطس .

فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	الاهداء
٥	مقدمة
١١	الحمله الانجليزية على مصر
١٤	قناة السويس
١٦	مصر فى قبضة الديوان
٢٧	توفيق
٢٨	مظاهرة قصر النيل
٤٩	جناية جلادستون على استقلال مصر
٥٦	ميشاق النزاهة
٦٠	ضرب الاسكندرية
٦٩	انحياز الحديو إلى الأعداء
٧٧	القيادة
٩٤	خيول سان جورج
٩٩	عمليات الميدان الشرقى
١٠٧	معركة التل الكبير
١١٦	يوم الاحتلال
١٢٣	بوكب الحراب
١٣٠	هذه الثورة فى الميزان
١٤١	بيان المراجع



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبّيد - روض الفرج

تلفون { ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤ }